زاهية

د. إيمان شريف زكي

رواية

obeikandl.com

اسم الكتاب : زاهية
اسم الكاتب : د. إيمان شريف زكي
رقم الإيداع :2017/15214
الترقيم الدولي 9789778350012
الطبعة الأولى : 2017
إخراج داخلي : هيام فهيم
صادر عن : مؤسسة زَحمَة كُتَّاب للثقافة والنشر
15 ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة
www.za7ma-kotab.com
دار زحمة كتاب للنشر
za7ma-kotab@hotmail.com
01205100596

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
لمؤسسة زَحمَة كُتَّاب للثقافة والنشر
المشهرة قانونًا بسجل تجاريّ رقم /84486

obeikandi.com

تقديم

تدلت شمس الصباح على صفحة النيل الجاري، فانعكست على النخيل الممتد من شماله وجنوبه، شامخا لا يحني ظهره إلا لله، ثم ذهبت إلى بيوت ساكنة بقلوب عامرة بالتوكل على بارئها .. فسلمت، وباركت، وحيت.

فسلام على بلادي في ربوعها وسهولها، ورجالها ونسائها، وغدها الأمل.

✍ .. د. إيمان شريف زكي

obeikandl.com

obeikandl.com

ضعي هذه السلة بجواري فأمامنا صف طويل، فهذه لم تطحن بعد - تشير إلى التي عن يمينها - قالت التي بجوارها: لقد ذهبتْ التي أمامي إلى طفلها هناك في ظل الشجرة لتطمئن عليه، فعلت صوتها تلك المرأة التي أتعبها طول الانتظار وشمس يوليو المحرقة تلفح وجهها ورباط رأسها الأسود وثيابها المهلهلة المنقوشة بنقاط سوداء كحياة أهل الريف في هذا الزمان.

تعالت أصوات النسوة والضجيج سمة هذا المكان، وطالبن من العامل على ماكينة الطحين أن يسرع في إنقاذهن من حرّ الشمس وهذا العناء الذي لا يبدو له نهاية.

خرجت المتقدمة في الصف متهللة حيث انتهت من هذا الروتين الأسبوعي وشكرت "يسري" الذي بدا منهكًا من الوقوف أمام الآلة المنفردة في هذه القرية.

انتهى عمله في الثالثة عصراً، سلك طريقه المعتاد لمنزله فهو يختصر طريقًا بين الحقول حتى يصل مسرعا، فقد لفّه الشوق إلى من وجد عندها السكينة، واستظل بفيئها الممتد في حياته منذ عام، من وجد المودة في القربى منها، إلى زوجته وأم ولده المنتظر.

"ابتسام" ندم عليها فخرجت تتهادى من داخل بيتها المتواضع الأثاث، الخالي من الزينة ولكنه الممتلئ بالحب الذي يكنّه الزوج لزوجه.

أوشكت "ابتسام" على الولادة، شعرت بالمخاض انتابها ما ينتاب النساء من الخوف والفرح! نعم الخوف من مغادرة الحياة عند الولادة، والواقع إنها مغادرة من الإفراد إلى التثنية والجمع، من العزلة والسكون إلى الاجتماع والضوضاء، أما الفرح فلرؤية هذا الكائن القابع في أحشائها تسعة أشهر، الذي يتلوى ويمشي وربما يقف ويركل وينام ويصحو، إنه في عالمه الواسع الممتد في ظلمات ثلاث.

أشرقت شمس اليوم التالي وكعادتها على تلك الحقول الشاسعة في القرية الممتدة بلونها الأخضر الزاهي، وصوت ماكينة الري يشق مسامع المارين لعملهم ممسكين بأيديهم أزمّة حيواناتهم إلى حقولهم وهناك يشق صوت آخر جوانب الدار، إنه صوت "ابتسام" وهي تضع مولودتها الأولى، فتاة جميلة، وجهها كالبدر، ذات لون أبيض، وعيناها سوداوان تقف أمُّ الزوج على باب الغرفة تحمد الله على ما رزقهم.

و"يسري" يعمل على ماكينة الطحين، يطحن الحبوب لنسوة القرية ككل يوم، ويقف بالخلف فتناوله الفلاحات

بذور القمح الذي هو الزاد والزواد، تمزح هذه معه وأخرى تدعو له بالصحة والعافية كي ينجز لها الطحين.

أسرع الخبر إلى أذنه فانتظر حتى انتهى من عمله وذهب مسرعا يسبقه الشوق إلى رؤية أول مولود له، فوجدها بنتًا احتضنها بين يديه، وشكر الله على ما وهبه من نعمة، وقال: ما أجملها، والتفت إلى أمها وقال: ما الاسم الذي يليق بهذا البدر يا أم البدر؟ قالت: أنت أبوها ويحق لك تسميتها. قال: إنها "فاطمة".

فرح الأبوان بطفلتيهما، وكانا يراها تكبر كل يوم أمام أعينهما، إنها طفلة جميلة، الحيوية عنوانها والمرح ديدنها، تعيش في حنان أبويها ورعايتهما.

ولكن أبتْ السعادة إلا أن ترحل مودعة هذه الأسرة الصغيرة تاركة الأحزان خلفها، تلون جدران المنزل بكل الألوان الداكنة، وتُصدِع قلب "ابتسام" بشق يصعب عليها التئامه وتلف "فاطمة" بلقب اليتيمة.

انتهت حياة " يسري" على هذه الآلة اللعينة في حادث مزقه أشلاء مبعثرة، ومعه تبعثرت الآمال والأحلام.

ماذا تفعل "ابتسام"، هذه المسكينة التي فقدت عائلها هي وابنتها الوحيدة، ماذا ستفعل بها الأيام في مجتمع ريفي،

Opeikanda.com

وفي هذا المجتمع كل صغيرة وكبيرة يسأل عنها الجيران؛ فيعرفون ما لا يعرفه الأهل عن بعضهم.

وبينما هي في تلك الحالة من التفكير العميق، أحست بيد أبيها على كتفها وكأنها استيقظت على كلماته وهو يقول: يا بنيتي اصبري واحتسبي إن الله مع الصابرين المحتسبين، هيا معي أنتِ وابنتك، قطعت كلام أبيها وقالت: لن أترك بيتي فأنا أحس بأنفاس زوجي تملأ أركانه، أشعر بخطواته تدب في كل مكان، أحسه وهو يداعب ابنتنا، أرقب الباب في وقت الغروب حتي يدخل من عمله ونتناول معا غذاءنا.

قال الأب مقاطعا: ستأتي معي أنت و"فاطمة"؛ فالناس لن يتركوك وشأنك.

لم تستطع المسكينة أن تثني أباها عن فكرته، وأخيرا اضطرت للذهاب معه.

كانت "ستيتة" زوجة أبيها تقف على باب الدار؛ يد تستند بها على الحائط، ويد في خصرها. تبرمت من مجيء "ابتسام" وأبدت عدم ترحيب بها.

كانت خائفة من الأيام وما تحمله لها ولابنتها؛ فقد طاوعت أبيها وذهبت تعيش في منزله وهي تعلم أن زوجة أبيها لن تتحملها، ولكن أين تذهب ؟

كانت تجلس في شرفتها المطلة على حارة ضيقة آخرها منعطف يؤدي بك لطريق واسع هو الرحب الوحيد في

القرية والذي يقع فيه بيوتات أكابر القرية وفيه منزل "الباشا" الذي منّ عليه الخديوي ومنحه اللقب قريبا ولكن أهل القرية كانوا قد تعودوا أن يقولوا " شاهر" بك أو "البيه".

كانت "ابتسام" تنظر إلى صبية يلعبون الكرة التي صنعوها بأنفسهم من لفافات القماش البالية وبعضها جديد لململوه من أمام دكان خياط القرية حتى أصبحت كرة كبيرة تتدحرج على الأرض وهم سعداء بها كأنها من أكبر محال الألعاب وأفخمها تغمرهم سعادة لا يعرفها " البيه" الذي كان يسخّر أهل القرية للعمل في حقوله الممتدة من مشرق الشمس إلى مغيبها نظير بعض القروش القليلة.

كان قلب "ابتسام" مثل هذه الكرة التي بين أقدام الأولاد فبعض الأفكار فيه سوداء مكلومة تشبه الخيوط البالية تبكي على زوج فارق الحياة سريعًا ترك لها سنوات قليلة من الحب الذي رقّ القلب، وسلب العقل، وملأ الروح بزوج سخي في حبه أيما سخاء فهو الذي كان يحمل طفلتيهما رغم تعبه الشديد ريثما تعدّ طعام العشاء، وكان يعرض عليها مساعدته في أعمال المنزل، ثم إذا اشتكت وجعًا أو ألمًا ذهب بها إلى الطبيب.

كان يسعدها بزجاجة عطر فهو يعلم ولع النساء به، لكنها كانت تتعطر من أنفاسه المنهكة وتدهن يدها من عرقه الذي يتصبب من أجل لقمة العيش، وتكتحل من نظرات

حبه وإعجابه لها، فهي لا تدري أهو الحب الذي يستمد منهما الحياة أم أن الحياة هي التي تعطيهما الحب؟

بعد أيام ذهبت إلي عمّ زوجها صاحب ماكينة الطحين علها تجد عنده بعض النقود من مستحقات زوجها، ولكنها لم تظفر بشيء، فقد كان زوجها يحكي لها كم هو بخيل يحب المال أكثر من ولده.

عادت المسكينة إلى بيت أبيها خالية الوفاض. لاقت أباها وزوجته يهمسان في ركن من أركان الدار، شعرت من نظرات عينيهما أن هذا الحديث يخصها فرجف قلبها لأنها تتيقن أنه لا خير يأتي من وراء زوجة أبيها.

ما إن رأتها "ستيته" حتى وقفت متمايلة كالغانيات في ليلة عهر ماجن، مع نظرات ملوثة بالحقد على الطاهرات العفيفات، ثم انتفضت وقالت: سأذهب لعجن الدقيق فلم يعد في الدار خبز.

نادي الأب على ابنته وبدأ في الحديث معها قائلا: لقد مرت شهور عدتك، وجاءني من يخطبك، صُمّتْ أذناها عند هذا الحد وكانت هذه الكلمات كالسهام المسمومة التي رُشقت في جسدها ولم تترك موضع إلا وأصابته، فهي هنا أشبه

openkamal.com

بمحارب العصور القديمة في حلبة المصارعة الدامية وقد انهزم ووقف المشاهدون في انتظار إعلان المنتصر.

- إنه "عبدالله" جارنا وأنت تعلمين أنه أراد الزواج منك منذ زمن، وأرى أنه أصبح مناسبا فقد تحسن حاله ووجد عملا في " الوسية" - هذا الاسم الذي يطلقه الفلاحون على أرض الباشوات و البكوات.

انتبهت إلى أبيها بعد غيبوبة سرعان ما عادت منها إلى الحياة.

- لكن يا أبي أصبحت الآن أمًا، ولا أريد الزواج حتى لا يصبح لابنتي زوج أب لا أدري كيف سيعاملها.

- ولكن يا ابنتي لن يتركك لسان الناس، وسيصوبون لك سهام الاتهام بنظراتهم التي لن ترحمك؛ فكلما خرجتِ قالوا إلى أين؟ وإذا ضحكت قالوا ضحكت وزوجها ميت،وإذا بكيت قالوا تفتعل الحزن كذبا!

جلست في حجرتها تراودها الأفكار، تشعر كأنها في بحر تدفعها أمواجه، وتشعر أنها كقشة لا وزن لها؛فلو هربت من ألسنة الناس؛ فماذا عساها أن تفعل مع زوج أبيها، وهي صباح مساء تشعرها أنها عبء ثقيل عليهم، وأنها وابنتها قاسمتهم اللقمة في وقت شح فيه الخبز وقل فيه الزاد، ففي الحرب العالمية الأولى اجتاحت المجاعة العالم ووصل الحال بالعرب إلى فرض دول الحلفاء حصاراً اقتصادياً وصل إلى منع الحجاج للوصول لمكة ومنعت

المواد التي كانت تأتي من أوروبا من دخول البلاد ومنع التصدير إلى خارجها الذي جعل في البلاد أزمة اقتصادية حادة وكان لمصر نصيب منها فضلا عن كونها تعاني من الاحتلال البريطاني.

لم تجد "ابتسام" إلا أن توافق بهذا الخطيب الذي طرق بابها على غفلة من أمرها، فهي كمن قفز من سفينة في المحيط كانت ستصطدم ببركان منفجر في وسطه لتواجه أمواجه المتلاطمة مضطرة، فأخبرت أبيها بموافقتها، وتهلل وجهه فرحا، ولكن ... انتظرها خبر سيئ، قال أبوها: إن الخاطب لا يريد ابنتها، لا شعوريا وجدت نفسها تحتضن ابنتها واضطرب قلبها.

وقالت لن أتزوجه، هنا برزت "ستيته" وطلت برأسها كرأس ثعبان ظهر من جحره تواً، واقترحت أن تضع ابنتها عند أعمامها فهم أولى بها.

نظرت "ابتسام" إليها وقالت: كيف أضع ابنتي عند أعمامها وهم بخلاء لن يراعوا الله فيها؛ فقد أكلوا حقها!

وهنا تكلم "أبو الحديد" الذي كان جالسا بجوار أبيه وقال: أنا أتكفل بها أنا خالها والخال في مقام الوالد.

إنه "أبو الحديد" شقيق "ابتسام" كان يكبرها بتسع سنين. هادئ الطباع وسع الصدر طويل القامة أسمر البشرة، متزوج وله من الأولاد ثلاثة، يمتهن الصيد له مركب صغير

openkanadi.com

في النيل يعمل عليه يكفيه قوت يومه، له زوجه مثله ذات خلق طيب حنون وديعة تحب زوجها وأسرتها.

تهلل وجه الأب ومعه زوجته، وقال: الحمد لله وجدنا لها حلا ها هو "أبو الحديد" حل المشكلة.

نظرت "ابتسام" إلى ابنتها - التي أتمت ربيعها الثالث، وكأنها وقفت في منتصف طريق، ودار برأسها ماذا لو رفضت الزواج؟ ستظل في بيت أبيها تكيل لها زوج أبيها المكائد، وتحيك المؤامرات، وإذا تزوجت بجارها فستفقد ابنتها فلذة كبدها.

لم تجد المسكينة حلا إلا أن توافق وقلبها يعتصر على حبيبتها التي ستفقدها، ولكن عزاءها الوحيد أنها تستطيع أن تراها وقت ما شاءت.

فرح الجميع بموافقة " ابتسام" وأقيمت الأفراح، ودخلت العروس بيتها الجديد، وفي قلبها ابنتها التي أودعتها عند خالها ولا تدري ماذا تفعل الأيام بهما.

انتقلت "فاطمة" إلى دار خالها وعليها ثياب قديمة اختفت ألوانها الزاهية تمسك بيد خالها الذي شعرت فيه بحنان أبيها، وكانت كثيرا ما تسأل أين أبي؟ لماذا لم أعد أراه؟ وهنا عرفت أنها انضمت إلى صفوف اليتيمات.

دخلت الدار المتواضعة استقبلتها زوجة خالها التي لم ترزق ببنات وكانت تحبهن كثيرا كانت "فاطمة" تراها عند أمها، ولكن لا تدرك مدى علاقة القربى بينهما، ولكن اليوم

openkanat.com

أدركت أن المقام سيطول في هذه الدار، باتت ليلتها على حصير قد أحدث علامات في جسدها الرقيق، وبجوارها أولاد خالها "محمود" و"إبراهيم" و"عرفان".

ذهب سواد الليل ولاح الفجر باسما واستيقظت على كلمات تمتم بها خالها بعد صلاة الفجر، وأخذت زوجه تعد له عدة الصيد؛ حيث كان يعمل على مركب صغير في النيل.

سمعت الصغيرة وقعات أقدام خالها تتجه نحو الباب فنهضت من فراشها وتشبثت بثيابه وكأنها خافت أن يتركها وحدها، وأصرت أن تذهب معه، فقال لها: أنا ذاهب للعمل وحينما أعود سأحضر لكِ الحلوى، أصرت " فاطمة" أن تذهب معه، فلم يجد بُدا من أخذها، أعدت له زوجه القليل من الطعام ثم سار بمركبه في النيل تتهادى أمواجه الدافئة وتتهادى معه دقات قلب الصغيرة وهي تنظر إلى خيوط الشمس الذهبية لتحيك بها مع ماء النيل أجمل منظر تقع عليه عينك، رقت الصغيرة لهذا ونظرت لخالها وابتسمت ابتسامة خفيفة ومضيا مع الشمس والنيل وألقى الشبكة مستعينا بالله ومتوكلا عليه ثم انتظر ما يرزقه الله به.

نظرالصياد إلى ما جاءت به شبكته فإذا هي ممتلئة عن أي يوم مضى، فهذا رزق ملحوظ، فكبّر وهلل ونظر إلى "فاطمة" وقال لها: " هذا وجهك الحلو عليّ" ثم سارت المركب وهما ينتظران ما يجود الله به، وانتصف النهار

وذهب " أبو الحديد" إلى السوق وباع السمك وأحضر القليل منه للغذاء، وانطلق الزوج إلى البيت فرحا بما رزقه الله ولم تصدق زوجته أن اليوم أكثر من غيره، ولكنها بركة الله التي يعطيها من يشاء.

لم تنس "ابتسام" مع زوجها الجديد أن تزور ابنتها وتطمئن عليها، فبعد مرور شهر سمح زوجها أن تذهب لزيارة أخيها وترى ابنتها، وعندما حطت قدمها في بيت أخيها ورأت "فاطمة" ضمتها إلى صدرها وقبلتها قبلات متتابعة كأنها وجدت ضالا غائبا منذ سنين وقالت لها: انظري يا حبيبتي أحضرت لك ثوبا جديداً، وعروسة لها ضفائر كي تمشطيها، صنعتها لك بنفسي، وألبستها بعضا من الأساور المصنوعة من البلاستك ذات الألوان المتداخلة أحضرتها من سوق القرية.

نظرت الصغيرة إلى تلك الأشياء التي أحضرتها أمها ولكن لم تفرح بكل هذا بقدر فرحها برؤيتها، وما لبث أن ارتدت الثوب ولبست الأساور واحتضنت عروستها، ونظرت إلى أمها نظرة معاتب، ثم اغرورقت بالدموع ثم انهمرت وكأن الحاضرين سمعوا دقات قلبها الصغير الذي يحكي يُتمها.

لقد اختلط في قلب الصغيرة شعور الفرح برؤية أمها والحزن بفقدها هي لا تعرف ما ينتابها غير أن دموعها اصطحبتها إلى صدر أمها فضمتها ضمة عميقة عادت بـ"ابتسام" إلى " يسري" حينما اشترى لابنتيهما أول قرط

ذهبي وألبسها إياه فتألقت به الصغيرة وازدادت جمالا كان قد ادخر ثمنه من عمله الشاق، ويومها احتضن الصغيرة وأخذ يدفعها بيديه إلى السماء فتعود بضحكة عالية بين يديه، فيزيد من ذلك حتى يسمع ضحكاتها المتكررة التي تملأ الكون فرحا، وتقف " ابتسام" على مقربة منهما ممسكة بكوب من الشاي والابتسامة لا تفارق فمها.

ذهب النهار وجاء الليل ووجدت "فاطمة" نفسها وحيدة من جديد، وانتبهت إلى عروسها فاحتضنتها ووضعتها بجوارها على وسادتها وغصّت الصغيرة في النوم.

سرعان ما مرت الأيام وأدركت الفتاة الإجابة عن الأسئلة التي طالما صدّعت رأس خالها من كثرتها أين أبي؟ وما شكله؟ لماذا لا تعيش أمي معنا؟

لقد أصبحت في السادسة عشرة من عمرها كالزهرة الجميلة التي كان بيت خالها يحبها ويوقرها لم تنل حظا من العلم ولكن ما سمعت من مجالس الذكر وسماع المشايخ ما أغناها عن كتب الأدب والشعر، كانت تستمع إلى هذا الشاب طويل القامة لعينيه بريق لامع يخبرك بشدة ذكائه، ذو منطق سديد ورأي راجح حيث كان كثير القراءة يطلع على مقالات أشهر الكتاب في زمانه أمثال العقاد ومحمد حسين هيكل، يحفظ القرآن الكريم ويعرف تفسيره، كان يتزين بثقافته الواسعة مجالس الشيوخ وكان يدعي "يحيى" حيث كان شتاء عام1922م تجلس فاطمة

بجوار موقد تستمع لحديثه عن "تصريح فبراير" الذي أعلنته بريطانيا - من جانب واحد - إلغاء الحماية البريطانية على مصر مع الاحتفاظ بحق تأمين مواصلات إمبراطوريتها وحماية مصالحها، فتهكم أحد الجالسين عن الاستقلال المزعوم، وتململ آخر من رتابة الحديث في أمور السياسة ودعى إلى تغيير مساره إلى أسعار الحبوب والأسمدة وغير ذلك من أمور الحياة، فردّ "يحيى" على المتململ بأن أسعار الحبوب التي تريد الحديث عنها السياسة هي التي تحددها، ونظر إليه نظرة المغتاظ من غبائه ثم استأذن من " أبي الحديد" وانصرف، حاول أن يعيده للمجلس ولكن أبى "يحيى" وغادر المجلس.

كانت " فاطمة" ما تجريه من عمليات حسابية في بيع الأسماك لخالها ما أغناها عن تعلم الرياضيات في معاهد العلم.

كان الخال جالسا في غرفة من غرف البيت التي تقع مقابل باب الدار الكبير ممسكًا بشبكة صيده التالفة محاولا إصلاحها وبجواره كوبا من الشاي، بينما كانت تودع زوجته جارتهم "غالية"، وتقول لها: "إن شاء الله كله خير واطمئني سأناقش خالها في هذا الموضوع، مع السلامة"، وأغلقت

الباب وأسرعت إلى المكان الذي يجلس فيه "أبو الحديد" ووجهها يتهلل بالفرحة والسعادة، فنظر إليها وقال: ما هذه الفرحة التي تعتري وجهك يا امرأة؟ فأسرعت في الرد وقالت جاء خاطب " لفاطمة" نظر إليها " أبو الحديد" واعتدل شيئا قليلا في جلسته وقال: من هو؟ قالت: "محمد" ابن الحاجة " غالية"، شاب متعلم يدرس في الأزهر وهم ميسوروا الحال فعندهم أرض وخير كثير، وأنت تعلم أباه ... قاطعها وقال على رسلك أليس لها أمّ يجب أخذ رأيها في زواج ابنتها؟ أم نسيت هذا الأمر؟ سأذهب إليها وأرى ما تقول.

وفي اليوم التالي ذهب "أبو الحديد" إلى أخته وكان قد مرّ عام لم يرها فيه، وما أن دخل بيتها حتى وجد الحصير البالي وبعض الأثاث الهش وتنور في وسط الدار مُلقى عليه بعض أواني مطبخية قديمة، رأى الفقر والبؤس وقد نشبا أظفارهما في كل ركن في البيت، نظر إلى أخته وكأنها غير التي كانت بالأمس شاحبة الوجه، أصبحت هزيلة عليها ثياب زرقاء داكنة ومرتدية غطاء رأس أسود قد ربطته على جبينها، أجال نظرات عينيه في طيات منزلها وكأنه يحاول أن يجد إجابة على ما يرى.

- ماذا حدث؟!

Opelkanaie.com

- مرض زوجي ولم يستطع العمل وذهبنا به إلى مشفى المدينة واحتار الأطباء في مرضه ولم يعرفوا ما به إلى الآن، و لم يعد بقوته.

- ومن يعول الأولاد؟ ومن يأتي بحاجاتك؟

أدارت وجهها عن أخيها وقالت: أنا أبيع خضارا وفاكهة لأهل الحي، وفي بعض الأحيان اذهب للحقول وألملم بعض الحشائش وأبيعها أو أجمع محصول مع بعض الفلاحات.

بلعت مرارة الحديث وقالت دعك مني وأخبرني عن "فاطمة" فقد شغلني مرض زوجي عنها، كيف حالها؟

قال في نبرة الحزين: لقد جاءها خاطب وجئتك لأرى رأيك.

تهلل وجهها وكأنها رأت شعاع نور في نفق مظلم، وقالت: هل تعرفه؟

- إنه جارنا وهو يدرس بالأزهر وحالهم ميسور فما رأيك؟

قالت: على بركة الله.

غادر الأخ بعد أن وضع بعض النقود في يد أبنائها، ووعدها بزيارة قريبة ليطمئن عليها.

دخل منزله وسأل عن "فاطمة" أين هي؟ فجاءت متهادية كزهرة انفلقت من كأسها خرجت توًا تسر الناظرين.

أخبرها بأن "محمدا "ابن الجيران يريد أن يتزوجها؛ فاحمر وجهها خجلا وحياءً على عادة أهل ذاك الزمان؛ فقال لها

openkandil.com

خالها معنى هذا أنك موافقة؟ فسكتت الفتاة حياءً ولم ترد فهي لم تره ورأت أمه عند زوج خالها، هي لا تعرفه ولم تتحدث إليه يوما لا تدري شيئا غير أنه جارهم ويذهب للأزهر للدراسة.

رأى أبو الحديد صمتها فقال: إذا على بركة الله.

بدأت زوجة الخال في تجهيز العروس، ولم يرها "محمد" حتى اللحظة، يسمع من أمه كلاما طيبا عن العروس، ويتمنى أن يظفر بنظرة أو حديث منها؛ فكر في أن يصعد إلى أعلى منزله ربما تكون على سطح منزلها، فصعد وجلس علّه يفوز بنظرة فيهدأ قلبه ويطمئن فكره على عروس المستقبل ولكن لم ير إلا زوجة خالها تعلق بعض الملابس في شمس أغسطس المحرقة.

اقترب موعد الزفاف، وفشلت محاولات "محمد" في رؤية "فاطمة"، وجاء اليوم الموعود وأقيم الحفل، كانت زوجة الخال وبعض النسوة تصببن زجاجات "الشربات" الأحمر اللون في وعاء كبير وصغار الحي يتهافتون عليه ويترددون على من تقوم بسكبه في أكواب علّهم يفوزون بكوبين أو ثلاثة.

كانت العروس في آخر غرفة في منزل خالها تتزين مع بعض صويحباتها اللاتي تعالت أصواتهن بالضحكات، طرقت "ابتسام" باب الغرفة عليهن وفتحت لها إحداهن وما إن رأتها "فاطمة" حتى عانقت أمها عناقا طويلا

وزرفت بالدموع كلتيهما فدعت الأم لابنتها بالبركة وصلاح الحال وغادرت هادئة، ثم جاءت زوج خالها وقالت في فرح: الكل ينتظر العروس ألم تنتهي بعد؟

ردت إحداهن: على وشك يا خالة. وضعت فاطمة غطاء رأسها الأبيض المصنوع من "الدانتيل" مع بعض طبقات قماش من الستان على وجهها على خضوع "محمد" وتلهفه لرؤية زوجته أخذ بيدها وخرج بها من منزل خالها فاستوقفه "أبو الحديد" فقبل رأس العروس وأوصى "محمد" بمعاملة أهله معاملة حسنة، وبعد أن ودّع المدعوين وسط تبريكات ودعاء، خلا "محمد" "بفاطمة" في حجرته التي أعدتها أمه في أعلى الدار، وأخذ بيده غطاء العروس ورفعه عن وجهها فإذا وجهٌ مضيء يعلوه حياء وجمال، وعينان تنظران بأمل في حياة زوجية سعيدة وشفتان لا تستطيعان التحدث خجلا وهي ترتعد لا تدري ماذا يكون طبع هذا الزوج، وهل سيصونها ويخاف عليها؟ أم أنه من النوع الذي لا يتحمل المسؤولية؟

نام العروسان ليلتيهما سعيدين يلفهما الفرح والسرور بأن جمع الله شملهما.

وفي الصباح طرقت أم محمد الباب لتطمئن على حال العروسين، وكانت أخت محمد "اعتدال" تقف خلف أمها متزينة بغطاء رأس أحمر حرير مشغولا بحبات الخرز الصغير وعليها ثياب صفراء ملونة بورود حمراء كبيرة كانت

ممسكة بصينية الفطور التي أعدتها "غالية"، عليها فطيرة كبيرة وطبق من العسل الأبيض وطبق مملوء بالبيض المسلوق وجبن وحليب وإناء ماء.

فتح محمد الباب وأطلقت زغاريد متواصلة عالية في السماء سمعها القاصي والداني، دخلت ثم قبّلت ولدها وقبّل هو يد أمه ثم جلست بجواره واحتضنته ودعت له بالذرية، تعمدت أن تتهامس معه الحديث و"فاطمة" في ثوبها الزهري ومنديل رأسها الأبيض المرصّع بحبات اللؤلؤ تنظر إلى ما يحدث فأم زوجها لم تبارك لها واكتفت بولدها، فالتمست لها عذرا، فهي أمّ ولها حق فيما تفعل.

مرّت أيام قليلة على وجود "فاطمة" في منزلها الجديد، وبدأت "اعتدال" تغار منها؛ فهي ليست جميلة، ولم تتزوج بعد، وبلغت ثمانية عشرة سنة، وهذا في عُرف الريف أنها قد كبرت وفاتها قطار الزواج، ومما زاد من غيرتها ما رأته من معاملة أبيها الطيبة؛ لأنه لمس فيها الحب والطيبة والاحترام لأهل البيت جميعا.

وبدأت "اعتدال" تكيد "لفاطمة" المكائد والدسائس مع أمها وتفتعل المشكلات تلو الأخرى حتى أصبحت "غالية" في صف ابنتها وتنصرها حتى لو كانت مخطئة.

كان "محمد" حائرا بين أمه وأخته من جهة، وزوجته من جهة أخرى، وكان أبوه يهون عليه بعض الشيء، ويحلّ بعضا من تلك المشكلات من حين لآخر؛ لكن "غالية" تتمتع

بشخصية قوية وتسيطر على كل الدار، ولم يستطع الأب فعل شيء أمام جبروتها، ولم يكن خبر حمل "فاطمة" بالذي يضيق الفجوة بين أطراف الصراع ..... ومرت شهور الحمل ووضعت مولودها الأول، وأصر "محمد" أن يُسمى باسم جده "إبراهيم".

نظرت إلى وليدها وضمته إلى صدرها وقالت: ما أجملك أنت يا حبيبي أنت من سيهون عليّ في هذه الدار، متى تكبر حتى أحكي لك كل شيء؟ .... لقد شعرت أن ولدها هو أبوها الذي فقدته، وأخوها الذي لم يكن من أمها وأبيها.

كان "محمد" ما يزال يدرس بالمعهد الأزهري، حيث استقل القطار المتجه إلى طنطا في الصباح الباكر، كان يستأجر غرفة مع زملائه، بالطابق الأرضي في حارة مجاورة للمعهد.

وضع زاده الذي جاء به من بلدته وألق السلام على من بالغرفة وكانوا يتبادلون عدد فبراير1933م من صحيفة الأهرام فتصدر خبر صعود النازية في ألمانيا صفحتها الأولى وصورة ولي عهد مصر في يوم مولده، وملكة جمال تركيا التي وصلت إلى القاهرة، قال أحد الجالسين وهو يرتدي جلبابا من الصوف الخشن تحته قميص خفيف أبيض وبرودة الشتاء في وجهه: ظهرت أحزاب في

الساحة بالإضافة إلى "الوفد" مثل "مصر الفتاة" و"الإخوان المسلمون" حتى أصبح الطيف السياسي الحزبي في مصر لا يقل تنوعًا عن مثيله الحزبي في دول أوروبا، غير أن "محمد" رأى أن نأخذ هذه التجارب الحزبية بشيء من الحذر، فقاطعه زميله المتكأ على سريره المتلحف ببرده، أن التعددية الحزبية مطلوبة لإثراء الحياة السياسية والفكرية وهذا ما يسمونه بالديمقراطية.

جلس محمد على مقعد بجوار موقد في وسط الغرفة وقال: أمثال "طه حسين" و"عباس العقاد" و"محمد حسين هيكل" نظروا إلى التجربة الديمقراطية بآراء مختلفة لكل منهم، ف"طه حسين" و"عباس العقاد" استغلا شهرتهما في توضيح مزايا دستور 1923م، والتغافل عن مساوئه ولاسيما على خلفية تنامي الفاشية في إيطاليا.

بينما "محمد حسين هيكل" يشير المرة تلو الأخرى إلى نجاح موسوليني في جلب الاستقرار إلى إيطاليا، لماذا ننظر إلى التجربة الإيطالية أو الألمانية لنتخذها أساسًا للفكر والثقافة؟ قاطعهم زميلهم الذي كان ممسكا بقدح من الزنجبيل الحار ومدّ بعنقه إلى الصحيفة التي في يد زميله، لقد وضعوا قانون يحرّم التسول وأخذ يقرأ ما جاء في هذا الشأن.

مضت شهور الشتاء القارس هذا العام ببطء شديد على "محمد" الذي أحب إنهاء الدراسة حتى يتفرغ لشؤون بيته وأسرته الصغيرة والكبيرة، فقد كان هذا آخر عام له في الدراسة ولم يستكمل دراسته في الجامع الأزهر بالقاهرة، لأن والده يحتاجه في أمور العمل حيث كان يعمل كاتبا عند "الباشا" إلى جانب العمل بالزراعة.

صبرت " فاطمة" على أذى " اعتدال" و"غالية" لها، وذلك إسعادا لزوجها الذي تحبه وابنها الذي ملأ عليها حياتها.

مرّت الأيام والأسرة يسير حالها للأفضل، وقبل أن تنتهي (الحرب العالمية الثانية) بعام وضعت مولودتها الثانية، وأصرّ محمد أن يسميها باسم أمه، ولكن "فاطمة" رفضت وقالت: ولماذا لا أسميها على اسم أمي؟

ولما رأى محمد غضب " فاطمة" أراد رضاءها فأسماها "زينب"، وعلمت الجدة أن الأم رفضت أن تسمي الابنة باسمها؛ فزادها غضبا، وساءت معاملتها لزوجة ابنها أكثر وأكثر فحملتها ما لا تطيق من أعمال المنزل وأسندت لها كل ما يخص البيت والطيور والحيوانات بالحظيرة فتنظف وترتب وتطهي الطعام للكبير والصغير، وكلما اشترى "محمد" لها ثوبا جديداً أو حذاءاً أرغمته أمه أن يشتري

لأخته مثلهما، كانت "غالية" تتهم "فاطمة" بسرقة الزبدة والبيض وتدعي أنها تبيعه للجيران.

ولم تعد تحتمل المسكينة، وذهبت إلى خالها لتشكو إليه ما يُفعل بها، وما أن طرقت باب الدار حتى سمعت صراخا وأصواتا عالية،وجدت خالها ممدد على سريره النحاسي ذى الأعمدة القصيرة التي تحمل ستائر زرقاء اللون قطنية، مغطى بغطاء أبيض وحوله زوجته وأولاده، نظرت إلى زوجة خالها وكانت تحمل الصغيرة على ذراعها و"إبراهيم" ممسكا بجلبابها الأسود ولما دخلت وجدت خالها قد فارق الحياة، وأدركت أنه لم يعد هناك سند ولا متكأ تتكئ عليه.

حينما رأته ممدد في فراش الموت تذكرت القُبلة التي وضعها على جبينها يوم عرسها تذكرت رحلاتها وهي صغيرة معه في نهر النيل، وكيف كان يغمرها بعطف وحب، لم يشعرها يوما أنها يتيمة فقدت الأب والأم معا.

جلست "فاطمة" على أريكة تحت شرفة غرفتها بالطابق الأعلى، و"إبراهيم" ممسكا بحصان خشبي اشتراه جده من سوق القرية له، وتطعم "زينب" بعضا من البطاطس المسلوقة الممزوجة برشات الكمّون المطحون فما زالت في أول شهر من عامها الثاني، بينما هي شاردة الذهن سمعت صوت بائعة الخضار تنادي على بضاعتها نظرت من نافذة الغرفة وجدت البائعة وحولها بعض النسوة يشترين

Obeikandl.com

الطماطم والبطاطس والخيار، ولكن هذا الصوت تعرفه جيدا، قامت وانتصبت وقالت في دهشة: إنه صوت أمي، اندفعت من الأريكة ونزلت السلم، وذهبت إليها مسرعة.

فقالت في دهشة يعلوها ألم: أمي!!! ما هذا الذي تفعلينه؟

فردت في هدوء أبيع الخضار للناس، مرض زوجي، ومات خالك ولم يعد لي عائل وأخوتك مازالوا صغارا يحتاجون لرعاية.

نظرت " فاطمة" لأمها نظرة الآسف الذي يعتذر، وقامت وأخذت بيدها إلى غرفتها بالطابق الأعلى، ورأتها "غالية"، ونظرت إليها نظرة دونية، وقالت في نبرة الشامت: كيف حالك يا أم " فاطمة"؟ عساك بخير؟ فردت"ابتسام" بلغة الحامد الشاكر الراضي بقضاء اللّٰه: الحمد لله على كل حال.

نظرت "فاطمة" إلى أم زوجها نظرة الغيظ، وصعدت بأمها إلى غرفتها، ثم ذهبت وأحضرت طعامًا وشرابًا، ثم مدت الأم يدها في السلة وأعطتها بعضا من ثمار الخضار، رفضت؛ ولكن أمها أصرت وقالت: هذا للعيال.

زاد الخناق؛ ورأت غالية أن المرأة لا يكسرها إلا الزواج عليها وإحضار ضرّة لها وهداها شيطانها أن تطلب من "محمد" الزواج على زوجته واختارت له عروس قريبة لهم من بلد أبيه تسمى "نفيسة".

قال محمد: لا أريد الزواج ولماذا أتزوج؟ أنا أحب "فاطمة" ورزقني الله منها الأولاد والبنات.

قالت غالية: أنت ولدي الوحيد، وأريد أن أرى ذرية كثيرة، و"فاطمة" في عمل المنزل، وقد تعبت وأرهقت.

نظر أبو محمد إلى زوجته وقال لها: اتقي الله يا امرأة لم نر من "فاطمة" إلا الخير.

قالت غالية: يا إبراهيم الولد وحيد وأريد أن يصبح له ذرية، قاطعها إبراهيم في غيظ شديد وقال لها: أنت لا تريدين إلا إذلالها؛ فقد ولدت لكم البنت والولد.

رأت " غالية" أن تمهل محمدا بعضا من الوقت؛ ولكن مازالت الفكرة برأسها وتفكر كيف تنجزها، ومصرة على تنفيذها.

ذهبت "فاطمة" إلى بيت خالها الراحل تتفقد حال زوجته وأولاده، وعلمت زوج خالها ما يحدث لها فطلبت منها الصبر فكم يلاقي الإنسان في هذه الدنيا من مشاكل لا يستطيع أمامها إلا أن يصبر.

كانت فرصة أن تطلب "غالية" من ابنها أن يذهب معها إلى بلدة "العماير" بلد أبيه بحجة تفقد الأرض التي لهم فيها، وتسّلم على الأهل والأحباب.

كان الجو شديد الحرارة فشمس أغسطس ورطوبة الجو يزيدا من غضب محمد في هذه الرحلة الغير مرغوب فيها، ناهيك عن صعوبة المواصلات والمعاناة الشديدة في تكبد

المسافات الطويلة التي يُقطع بعضها سيرا على الأقدام حينا وركوب الحمير حينا آخر.

حتى وصل " محمد" وأمه بيت " نفيسة" إحدى قريباتهم فاجأت محمدا بأن طلبت من أهلها يدها، نظر محمد إلى أمه نظرة المندهش من فعلها، وهمّ أن يتكلم ويقول: لقد جئت ... ولكن أمه لاحقته وقالت: لقد مرض " إبراهيم" ورغب في المجيء؛ لكنه لم يستطع ووكلني في خطبتها وإتمام الزواج.

كانت أم نفيسة تجلس بجوار زوجها صاحب اللحية البيضاء والجلباب البني، وهي صاحبة الجسم الممتلئ ذات البشرة القمحية، تتعصب بغطاء رأس أسود، مرتدية زيّ قريتها الرسمي، ثوب فضفاض مطرز بخيوط قطنية من أعلى عند الصدر وقماش زائد مموج في الأسفل.

- ولكن "محمد" متزوج وله أولاد.

- لقد مرضت زوجته ولا تستطيع أن تقوم بأعباء الزوجية والأولاد.

- وأين ستسكن ابنتي؟

- عندنا ففي البيت غرفة بجانب غرفتي في مدخل الدار سأعدها لهما.

- لا ستكون ابنتي بجواري وإلا لن يتم الزواج - قالت في غطرسة.

قالت في استعطاف:

- ولكن بيتنا كبير ومحمد لن يستطيع المجيء كل يوم إلى هنا.

قالت في استخفاف:

- لا أريد لابنتي أن تدخل على ضرّة وأريد أن أعلم ابنتي بعضا من أمور المنزل والحياة الزوجية.

- حسناً لك ما تريدين.

كان محمد في هذه الأثناء لا يدري ماذا يفعل، لقد تحدد موعد زواجه الثاني وهو لا يشعر بعاطفة تجاه عروسه الجديدة؛ فقلبه مشغول بـ"فاطمة" وأولادها، يتساءل في نفسه: ماذا ستفعل لو علمت بزواجي من غيرها؟ فكر في إنهاء الخطبة؛ ولكن خاف من أمه ثم اقترب موعد الزفاف، لقد ذهب ثلاثة أسابيع وتبقى أسبوع.

فكر وفكر حتى اهتدى إلى أن يخبرها بزواجه؛ فهذا أفضل من أن يتزوج بدون علمها وبذلك ستشعر أنها الوحيدة التي تسكن قلبه، وهذا الزواج ما هو إلا رضى لأمه.

أخبرها بما حدث، وأنه أجبر على خطبة إحدى قريباته، وقفت " فاطمة" أمامه مذهولة ولم تصدق ما تسمع، فمهما يكون السبب لا داعي للزواج بغيرها فهي لم تقصر أو تهمل، لم تكلّ أو تملّ، لا تتراخى ولا تتكاسل.

في تلك اللحظة اجتمع قهران عليها، قهر اليتم الذي عاشته وهي صغيرة وقهر الحُب الذي أذاقته وهي كبيرة، قهرها حبها لزوجها فلم تستطع تركه، وأين تذهب؟ شعرت

بالضعف وقلة الحيلة، لو كانت تجيد مهنة أو أخذت قسطا من التعليم لأفادت نفسها منه، هكذا حدثت نفسها.

أهو غرور من "محمد"؟ أم أراد أن يطبق سُنة في التعدد؟ هو الرجل الأزهري الذي يعلم أن الله تعالى لا يرضى كسر الخواطر حينما يقرأ قوله تعالى: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله﴾ المرأة بطبعها "تشتكي" فسمع الله شكواها حينما رفعتها إلى رب السماء فأجبر خاطرها وراعى نفسيتها أفلا يراعي هذه النفسية حينما يأتي زوجها ويخبرها أنه سيتزوج عليها بأخرى؟؟؟

انتبهت إليه يقول: لقد فاجاءتني ونحن في زيارة أعمامي ولم أستطع ... قاطعته بقولها: لما لم تخبر الجميع أنك تحب زوجتك وأولادك؟ لماذا لم تكن شجاعا وتقول "لا"؟

رد محمد: إنها أمي ولا أستطيع أن أعصي لها أمرا.

نظرت إليه نظرة لم يرها "محمد" في عينيها من قبل، إنها ممزوجة بالغضب مع الكره، كره الأنثى الذي يشبه الثلج سرعان ما يذوب مع حضن دافئ وكلام معسول.

أمسك محمد بيدها راجيا منها البقاء، وأخبرها أن لولا خوفه من الله لتزوجها شهرا أو شهرين وطلقها، ولكنه يعلم شرع الله وحدوده التي درسها بالأزهر الشريف!

سمع محمد طرقا على باب الحجرة؛ ففتح فوجد والده على الباب، دخل فوجد "فاطمة" تبكي بكاءً شديداً فاقترب

منها وجلس بجوارها، وقال لها: يا بنيتي نحن لا نستطيع ردّ قضاء الله فينا، وكل أمورنا لا دخل لنا فيها، واعلمي أن الله يدافع عن الذين آمنوا، ولو كانت " غالية" يجوز ضربها لفعلت ولكنها سيدة مسنة، ألا يكفيك أن زوجك يحبك وأن البيت ينير بصوت أولادك ومرحهم فيه؟ ثم أين ستذهبين؟ ونحن يا بنيتي لا ندري ما يفعل الله بنا غدا، ادعي الله أن يفرج همك ويجعل زوجك لك وحدك.

نظرت " فاطمة" إلى عمها " إبراهيم" وكأنها فكرت فيما قال، ثم نظرت إلى واقعها من أم فقيرة وخال قد ذهب إلى بارئه، فلم تر ملجأ إلا أن تبقى في بيت زوجها، وكأنها قبلت الأمر على مضض؛ فلم تر مخرجا غيره، وسلمت أمرها لله، ودعت ربها أن ينصرها على الظالمين.

مرّ الأسبوع وذهب محمد ليدخل بعروسه الجديدة، في بيت أبيها كما أرادت أمها، وحينما نظر إليها للمرة الأولى قال في نفسه: إنها تشبه أمها كثيرا وأنا لا أحبها، ولكن لا تأخذها بذنب أمها علّها أفضل منها خُلقا - هكذا قال - لاحظ أنها لا تستقر في جلستها تحدق إليه من خلف غطائها ثم تعود وتجلس على السرير النحاسي المفروش بالحرير، وبجواره بعض الأواني الفخارية للشرب، تناول واحدة وشرب منها؛ فهي كثيرة الضحك لا تعرف إلا العناية بزينتها وثيابها غريبة الألوان، لا تعرف الجِد، ولا تعلم فنون المنزل، ولا تفهم في أمور الزوجية شيئا.

صبر "محمد" على بلواه، ربما يجد فيها بغية أمه، مرّ عام كامل وهو يذهب إلى "العماير" ليتفقد نفيسة كل أسبوع رغم صعوبة وسائل المواصلات في هذا الزمن، أخبرته أنها حامل في شهرين، سمع محمد الخبر بفتور شديد واكتفى بقوله: مبروك.

كل يوم يمرّ لا يشعر محمد بالحب تجاه " نفيسة"؛ فلا تملكه بشخصيتها الجذّابة، أو روحها العذبة، أو حديثها الشيق، مرّت أيام الحمل ووضعت مولودة تشبه أمها؛ لكنها قليلة الوزن تعاني مشاكل في القلب، ذهب بها محمد إلى الأطباء، وبدأ مرحلة الدواء والعلاج.

لم تكن أيام الطفلة إلا معدودة في هذه الحياة، وذهبت إلى خالقها، حزن محمد على فراقها رغم ما يكنه لأمها من فتور المشاعر، ولم يجد بدّا من مصارحة أمه بعدم رغبته في الاستمرار في هذه الزيجة.

حيال هذا لم تستطع غالية إقناع ولدها بالاستمرار مع زوجته الثانية.

عاد "محمد" إلى "فاطمة" عودة المشتاق إلى ضم حبيبه، المتلهف إلى نظرة من عينه علّها تروي ظمأه كأنه دخل بها من جديد.

ازدادت "غالية" غضبا على "فاطمة" بعد طلاق ولدها من زوجته الثانية، أخذت تضيّق الخناق عليها بكثرة الأعباء، كانت تتعمد إفشال ما تقوم به حتى تعيد ترتيبه من جديد.

obeikandl.com

كان نهايات شهر مارس والجو معتدل في منتصف النهار، هناك أريكة في وسط الدار على يسار حجرة " غالية" تجلس عليها وتغزل الصوف وتنظر إلى " فاطمة" وهي حامل في مولودها الثالث تعمل المسكينة في صمت دون كلل، بينما " غالية" على حالها شعرت بوكزة في صدرها وضيق في التنفس، وضعت المغزل من يدها ونادت على زوجها فلم يسمعها.

رأتها "فاطمة" فتركت ما في يدها ونادت بصوت عال على زوجها الذي كان يجلس في الغرفة الأمامية يراجع بعضا من الكتب، أسرع إلى أمه وجاء والده من الداخل وذهبا بها إلى الطبيب الذي جاء حديثا إلى قريتهم، وبعد فحصها قال لـ"محمد" إن والدته تتعرض لذبحة صدرية تستوجب الذهاب إلى مشفى المدينة، سرعان ما غادروا عيادة الطبيب وذهبوا بها إلى المستشفى العام.

بقيت شهرا يعالجها الأطباء من مرضها وفي هذه الأثناء كانت "فاطمة" تراعى البيت وتعد الطعام الذي يذهب به "محمد" إلى أمه وكانت ترافقها في بعض الليالي، ولم تجد ابنتها "اعتدال" بجوارها؛ حيث تزوجت منذ فترة قصيرة وكان زوجها من قرية بعيدة ولم تجد غير هذه المسكينة ترعاها وتقوم على خدمتها.

رزقت "فاطمة" بـ"عبد الإله" في نهاية الحرب العالمية الثانية، كان يشبه والده كثيرا، فأحبته جدته "غالية" وكان سببا في تقاربها مع أمه حيث تغيرت معاملتها السيئة وأصبحت أكثر بشاشة من ذي قبل.

ازداد المرض على "غالية" ففارقت الحياة، وتركت البيت بكل ما فيه لـ"فاطمة" التي أصبحت سيدة الدار، هي الوتد والكل يدور في فلكها، وكان "أبو محمد" يغمرها بعطفه واحترامه وتقديره.

لم يعد له دور إلا الذهاب إلى مسجد الحي مع بعض أصدقائه، أو إقامة الحفلات الصوفية في ذكرى موالد العارفين بالله، وفي المولد النبوي.

في مطلع الخمسينيات اتفق على الذهاب للحج مع بعض رفاقه؛ فقد ادخر مالا ليس بالقليل على مدى عشر سنوات لذلك أخبر ولده بنيته للحج في هذا العام، وجاء وقت الحج، وخرج أهل القرية كلهم لتوديع هذا الفوج المبارك طالبين الدعاء وأن يرزقهم الله الحج العام القادم، ودع "محمد" أباه، وتحرك الجمع إلى ميناء السويس لركوب سفينة الحجاج إلى أراضي الحجاز للوصل إلى مكة حرسها الله.

رزقت "فاطمة"، بـ"عائشة"، وكان عامان بينها وبين "عبد الإله"، كانت صاحبة ملامح رقيقة لم يرها جدها؛ لأنه فارق الحياة أثناء عودته من رحلة الحج فدفن بفلسطين.

في أوائل الخمسينيات كان الوضع الاقتصادي للأسر المصرية سيء وخاصة في الريف فلم يبلغ دخل الأسرة أكثر من خمسة جنيهات شهريا، بينما يتحكم في اقتصاد مصر تسعمائة وستين شخصا يسيطرون على كل الوظائف الأساسية في مجالس الإدارات للشركات الصناعية من بين هؤلاء مائتان وست وخمسون مصريا فقط.

كان يخرج الأطفال للعمل في الحقول تاركين دراستهم، لكن "إبراهيم" كان يحب معهده فلم يترك دراسته في الأزهر علّمه والده حب العلم، كان يذهب إلى الحقل ممتطيا حماره وفي يده كتابه الذي لا يفارقه، كان يتقاضى أجره اليومي خمسة قروش يساهم في أعباء البيت مع والده، وعلى صغر سنه إلا إنه باش الوجه يحادث الناس بلغة الكبار مما زاد حب أبيه فيه، أما عن أمه فكان عشقاً وليس حباً، كانت تحس فيه بصداقة عجيبة لما يكونا أما وابناً بل سندا وعونا لبعضهما ثم رزقت "فاطمة" بـ"خالد"، صاحب وجه مستدير وأنف حادة وبشرة بيضاء مشربة بحمرة، حمدت الله على ما أعطاها، وفرح الجميع به، ثم حملت "فاطمة" في مولودها السادس، بعد خالد بعام، وكانت ولادتها في ديسمبر القارس البرودة، و"محمد" يوقد بعضا من الحطب أمام الدار حتى إذا صفد أدخله فيستدفأ منه الصغار، جلسوا بجوار أبيهم يرقبون حركة غير عادية، جاءت القابلة مع جارتهم ودخلا حجرة أمهم، بينما "محمد"

ممسكا بالمصحف يقرأ بعضا من آيات الله، خرجت جارتهم بعد ساعة وباركت لهم أختهم الجديدة، أصبح لدى محمد ثلاثة من الذكور وثلاث من الإناث، دخلوا على " فاطمة" وهي ممددة على سريرها وعن يمينها المولودة الجديدة، ذهب إبراهيم إلى أمه وقبل يدها.

كانت " عائشة" تنظر إلى أمها بحالة من الغيرة لكن سرعان ما تداركت " فاطمة" واحتضنتها وأجلستها عن يسارها، كشف "عبد الإله" غطاء أبيض قد وضعته القابلة على وجه المولودة الصغيرة الحجم جدا، قال في ابتسامة تشعرك برقة الأطفال إنها جميلة جدا يا أبي انظر إليها، أمسك الأب الصغيرة بين يديه وفعل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذّن في أذنها اليمنى وأقام في أذنها اليسرى، ثم طلب من الصغار مغادرة حجرة أمهم، فانصرفوا جميعا وأخذ يطعم "فاطمة" بيده من حساء قد أعدته جارتهم "أم ياسين" قالت فاطمة في دهشة لماذا تفعل ذلك؟ قال: أفعل سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هجرها الرجال. قالت: وما هي؟ قال: كان يطعم زوجاته من يده الشريفة حبا وتوددا منه لهن. قالت: وما الاسم الذي يليق بهذا القمر؟

قال: "زاهية".

أطلت إذا "زاهية" على الدنيا في شتاء عام ثلاث وخمسين وتسعمائة وألف، وهي كالبدر المنير تشبه جدتها لأمها.

كانت " فاطمة" ترى فلذات أكبادها يكبرون أمامها، وآخر العنقود ما زالت في حضن أمها تبلغ ثلاثة أعوام، الكل يدللها، ويشتاق أبوها دائما لضمها بين ذراعيه ورفعها في السماء فتضحك الصغيرة فيهون عليه تعب اليوم ومشاكله.

مرت على ثورة يوليو ثلاثة أعوام، ذهب " محمد نجيب" وجاء " عبد الناصر" يطل عليهم بصوته من المذياع في خطبة عصماء والناس يستبشرون بهذا الشاب اليافع الذي يعشق القومية والعروبة ويحاول أن يبني مصر الحديثة ... قيل إن حوله بطانة سوء تلتف حوله ليس من هدفها إصلاح البلد ولكن هدفهم مليء جيوبهم من الذهب.

لقد جاءته فكرة جمع البقالة والجزارة والخضر والفاكهة في جمعية واحدة، فاعتاد الناس الوقوف طوابير من أجل السكر والزيت والسمن، وشلت حركة التجار الصغار فلم يعد لهم محلات يبيعون فها الخضار والفاكهة، كما أن العملة الورقية أصابها الإهمال وعدم التجديد، فبدلا من طباعتها كل خمس سنوات ظلت مهملة وتركت عشرين سنة دون طباعتها، ومن الناحية السياسية كان مولعا بحل مجلس الأمة كل بضعة أشهر لشغل الرأي العام في الانتخابات ثم أثر في لباس الناس وزيهم فألغى لباس الرأس (الطربوش).

كان الريف بعيدا عن لباس أهل المدينة ومن الفتيات اللاتي أصبحن عرايا في المدارس والجامعات المصرية، فلا ينكر أحد موضة التنورة القصيرة التي فوق الركبة والثياب الضيقة بحجة المدنية.

كانت "فاطمة" تعاني كثيرا من قلة المال كي تصرفه على أولادها، فكانت تريد أن يتعلموا جميعا، وزوجها يعمل كاتبا بأجر قليل.

مرضت " عائشة" بالحمى مما أقعدها عن استكمال دراستها، وجلست في البيت فكانت ضعيفة الجسم هزيلة البنيان، وأتمت "زينب" مرحلتها الابتدائية، ورفضت أن تكمل تعليمها، وأصرت أمها على ذهابها للمدرسة، ولكنها رفضت وقالت: أحب الجلوس في البيت فالخوجة يضربنا ولا أفهم منه شيئا، وأنا أحب أمور المنزل من طبخ وغسيل ومراعاة الدجاج والبط والإوز.

أصبحت "زينب" في عمل المنزل حتى أتقنته، وكانت أمها تجلسها أمام التنور وتعلمها كيف تخبز العجين وتصنع الفطائر، كبرت وشبت عن الطوق وأصبحت في سن أمها حين تزوجت.

وصل إبراهيم إلى كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر في القاهرة بعد رحلة أمضاها في معاهد طنطا الأزهرية، أراد والده أن يكمل تعليمه ويحقق حلمه في نيل شهادة جامعة الأزهر العريقة، ذهب إلى القاهرة واستأجر غرفة

مع بعض زملائه الذين جاءوا من مختلف أنحاء مصر فتعرف على "حسن" من صعيد مصر شاب طويل القامة أسمر اللون نحيف الجسم يمتاز بالجلد والصبر، و"يوسف" من الدقهلية خفيف الظل دائم المزاح يعشق صوت المطربة "نجاة الصغيرة" رغم كونه أزهريا.

كان الثلاثة يسكنون الغرفة التي فوق سطح بناية يمتلكها رجل مسن مطلة على الجامع الأزهر، وكان الحي مشتهر بطلبة الأزهر الشريف.

كان " محمد" قد باع قيراط أرض من إرثه في بلدته "العماير" كي يدبر مصاريف "إبراهيم" في الأزهر.

في يوم عاد من عمله ونادى على "فاطمة" وأخبرها أن "عبد الكريم البنا" أحد شباب القرية جاء خاطبا لـ"لزينب"، كان مع أخيها في معهد طنطا، لكنه لم يكمل تعليمه بالقاهرة واكتفي بالثانوية الأزهرية، ورث عن أبيه حديقة صغيرة ومنزلا بجوار الحديقة، فقالت: ألا ترى أنها صغيرة على الزواج؟ قال: ألم تكوني في مثل عمرها حين تزوجتك؟ ثم إنها تعرف أعمال المنزل وتتقنها، إن "عبد الكريم" رجل طيب ومن عائلة ميسورة، وسأتفق معه أن يكون الزواج بعد ستة أشهر حتى أرى ما يكون من أمور إعداد بيت الزوجية، وما سنشتريه، وما سيحضره، ونكتب قائمة بالأثاث والذهب.

بدأ الاستعداد للعُرس، ذهبت "فاطمة" لسوق القرية وكان يوم السبت من كل أسبوع سوق كبير يباع فيه كل ما يخص البيت وأدوات تلزم الفلاحين في الحقول وهناك مكان مخصص لسوق الماشية فيه.

ذهبت "فاطمة" مع جارتها لتشتري ما يلزم ابنتها في بيتها الجديد من أوانٍ وكؤوس وأطباق وملاعق، وتفاوض في السعر مع هذا البائع أو تلك البائعة وهي مسرورة بجهاز ابنتها الكبرى.

أوصت " زاهية" أمها أن تحضر لها أساور وحلوى من السوق، تذكرت أمها الوصية ولما جاءت ووضعت ما معها من أغراض بحثت الصغيرة فيها عن مقصدها، نظرت أمها لها وهي تضحك وأخرجت الأساور من جيب جلبابها الأسود وقالت ها هما معي، اختطفتهم الصغيرة من يد أمها وسُرّت بهم كثيرا.

بعث " عبدالكريم" المرأة التي تحيك الثياب ومعها عشر قطع من القماش، وجلست أسبوعا في بيت العروس تحيك الملابس الأنيقة، وتصنع التطريز على الجلابيب، وقبل يوم الزفاف بأسبوع ذهبت صديقات العروس إلى منزلها لفرش الأثاث، ووضع لمسات الجمال على الأركان جميعها وسط زغاريد يتخللها بعض الضحكات وشيء من سخرية بعضهن على بعضهن الآخر أحيانا.

openkandil.com

حان وقت الزفاف، وأقيم العرس ودخلت " زينب" بيت الزوجية وكانت عروسا ما أجملها، بات الزوجان ليلة يملؤها الحب والسعادة.

جهّزت "فاطمة" فطور العروسين، وذهبت على عادة أهل القرية إلى بيت العروسين بالسمن والدقيق والدجاج والبط والإوز، قابلت أم " عبدالكريم" أم العروس بالترحاب والحفاوة الشديدة، رأت " فاطمة" ابنتها في أبهى منظر، رأت وجها مضيئا كالقمر في تمامه، وكان صغار الحارة ينظرون من خلف الباب ويذهبون ويجيئون أمام الدار علهم يفوزون بنظرة يرون فيها العروس الجديدة على حارتهم.
كان"إبراهيم"في سن "عبد الكريم" فهو زميل الدراسة في المعهد الأزهري بالبندر، ولأن عبد الكريم وحيد أمه فضلت زواجه مبكرا، وكان إبراهيم قد ذهب مع أمه يحمل أغراض العروس من بيت أبيها ويبارك لأخته وزميله، والجميع جلوس، " إبراهيم" ممسكا بكوب من الشاي يتبادل الحديث مع زوج أخته، وتجلس أمه بجوار ابنتها العروس تهمس في أذنها في حديث خفي، دخلت جارة "عبدالكريم" وتدعى " وردة" وأمها للتهنئة، نظر إبراهيم فجأة، فوجد فتاة من بلاد الإنكليز لها قوام ممشوق، وعينان زرقاوان، وبشرة بيضاء، شعر كأنما حلق في

Open-kandle.com

السماء ولم يحط على الأرض إلا حينما نبهته أمه إلى كوب الشاى الذي سيسقط على الأرض.

أخذت بفؤاده في الحال، ومن حينها أخذ يتردد على بيت أخته علّ المكان يجود عليه برؤيتها، فهو لا يجرأ أن يحادثها أو يتحدث عنها، لا يستطيع السيطرة على قلبه من هذا الحب الذي يشبه الطوفان، ولم يجد إجابة عن سؤال عقله لماذا هي؟ لأن الحب علاقة سرية يخشى صاحبه من البواح به، وعشق السمع أقوى عن عشق العين، وهو أصدق وأبلغ في القلب وإذا التقى العاشق بسمعه برؤية محبوبه، فقد جمع بين السمع والعين، أصبح الحب أعمق بكثير؛ لأنه يعشق بحاستين لا واحدة.

كانت " وردة" رغم جمالها فقيرة تذهب للحقول للعمل فيها، كباقي الفلاحات، هي وأمها تكابدان حر الشمس ولا تجدان ما يستران به جسديهما إلا ثيابهما الرقيقة القديمة، لم يمنعها الفقر من الحب، رأت في "إبراهيم" الرجل الذي ستسكن إليه، عشقت فيه المروءة التي رأتها في طهر إحساسه، عشقت نظرة عينه التي أشعرتها بالوداد، عشقت روحه التي احتضنتها منذ اللقاء الأول، فذهبت بها في فضاء الكون الشاسع لتبعدها عن أسى الحياة على الأرض ومرّ عيشها.

تردد"إبراهيم" في الحديث عن الزواج مع والده وهو ما زال في الجامعة، كان شهر سبتمبر بهوائه البارد ينعش حب " إبراهيم" فيزداد شوقا لمحبوبته، له مكان يفضل الجلوس فيه، جدول صغير في نهاية حقل يبعد عن مكان العمران قليلا، يذهب إليه ويختلي بنفسه هل يفاتح أباه أم ينتظر حتى يفرغ من دراسته، ظل هكذا حتى انتبه إلى أذان العشاء فتوضأ من ماء الجدول وصلى ثم غادر المكان وذهب إلى البيت.

قرر إبراهيم أن يخبر أباه بخطبة "وردة"، فأترابه من شباب القرية معظمهم قد تزوج، فتشجع وأخبر والده في الخطبة.

كان الرد سريعاً، الرفض من " محمد" دون أدنى تفكير، وسأل "إبراهيم" أباه لماذا؟

لم يجب " محمد" وأصر على رفضه دون إبداء الأسباب، وانقلب حال إبراهيم، وأصبح شارد الذهن في ضيق وحيره؛ فأحس بأنه قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت.

كان "محمد" يدبر أمراً لإبراهيم لا يدري عنه شيئا، أراد أن يزوجه من " اعتماد" ابنة صاحب ورشة النجارة التي في أول حارتهم، وقد ظن في نفسه أن هذا هو الأصلح لولده، حادث ولده في أمر "اعتماد"، رفض " إبراهيم" وعارض بشدة، إنه لا يعرف سوى " وردة" ولا يشعر إلا بحبها.

قال محمد: سنذهب لخطبة "اعتماد" يوم الجمعة - إن شاء الله - وتكون معي.

قالت فاطمة وهي تنظر في عين زوجها وقد ملأها الغيظ: لماذا تريد أن تفجع قلب ولدك فيمن يحب؟ ألم يُكسر قلبك يوما حينما أرغمتك أمك على الزواج للمرة الثانية؟ ولوحت بيدها في وجه "محمد" كأنما تقتص من فعلته القديمة وقالت: لماذا كل هذا العناد.

ترك إبراهيم الحجرة لا يدري أين يذهب.

قال محمد: يا امرأة أريد لولدي من يسانده ويكمل تعليمه بالأزهر، وأبو "وردة" فقير وبالكاد يجد قوت يومه، أما أبو "اعتماد" فهو صاحب محل تجارة كبير إذا ضاق الحال بولدك وجد من يساعده ويقف بجواره.

لم تستطع "فاطمة" أن تثني زوجها عن رأيه وتأزم الحال بـ"إبراهيم"؛ فـ"وردة" تملك قلبه وعقله وأصبح كمجنون ليلى يهيم في الحقول الشاسعة علّه تحتضنه ويبث همه لها.

كانت "وردة" تتردد على بيت "زينب" علّها تفوز بمقابلة، أو يرمي حبيبها السلام عليها. أخبرتها "زينب" أن "محمد" سيخطب "اعتدال" وأن أباها رفض زواجهما، لم تصدق ما سمعت، أسرعت نحو الباب تسبقها عبراتها، دخلت البيت أخبرتها أمها أن "فتحي" ابن عمها الذي يعيش في

الإسكندرية يريد أن يتزوجها، وأن أباها قد وافق، قاطعت وردة أمها وقالت: دون أن تخبروني؟ فردت الأم قائلة: منذ متى نأخذ برأي البنات في أمور زواجهن؟

في هذا الزمن كانت بعض البيوت تحكم على بناتها بالزواج ممن لا ترغب فيه، ربما للتخلص من عبأها أو ظناً منهم أن هذا يناسبها، أو مصلحة بين الأقارب فتتزوج البنت ابن عمها خشية فقدان الأرض أو ضياع الإرث وأن يذهب للغريب – هكذا يفكرون - وكان جهلهم قد غطى على كون المرأة مخلوقة كالرجل مختلفون ولكنهم متساوون، هي لها عقل تفكر، ولها قلب يشعر، كيان مثل كيان الرجل، هم مختلفون في الجسد في الصورة والتكوين، وليس في التكليف والإعمار، هي ملك يمين ولكنها في منزلة الصلاة، فنبينا يقول - عليه الصلاة والسلام: "الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم"، في النهاية هي إنسان جُبل على الحرية، يكره القيود بكل صورها، هو يسبح في فضاء الله الواسع.

انتبهت " وردة" إلى قول أمها: لقد اتفق معه أبوك أن زواجكما في الصيف القادم، وستذهبين معه إلى الإسكندرية، سينقذنا من هذا الفقر والجوع والتعب الذي نحن فيه، لم تجد المسكينة إلا البكاء والحزن على فراق حبيبها.

وكان "إبراهيم" في غرفته التي يستأجرها مع بعض من زملائه في حي الحسين بالقاهرة يجلس في زاوية منها يفكر في حبيبته التي لا يريد غيرها، لاحظ رفقاؤه ما هو فيه، أخذ بعضهم يداعبه ولكن بلا فائدة.

انتهت أشهر الدراسة وجاء الصيف، وعاد إلى قريته، وأخبرته أخته أن "وردة" قد تزوجت فخّر على الأرض مما سمع؛ فكان الأمل موجودا في رضا والده بالزواج من حبيته، انطلق مسرعا ولا يدري أين يذهب، ظل يسير في الحقول حتى وجد ساقية فجلس عندها وكأن هذه الناعورة بصوتها العالي توقظه من كابوسه، سمع صرصور الحقل يدق في ذهنه، ونقيق الضفادع من جدول الماء الذي يجلس بجواره يقرع عقله بضوضاء صاخبة، سمع أصوات الفلاحين يعملون في حقولهم ليلا، ويسقون زرعهم حتى إذا نضج باعوه في السوق أو للتجار ثم يزرعون الحب ويفعلون ما يقومون به مرارا دون سأم أو ملل، شعر ببرودة تسري في جسده، قام وذهب إلى البيت، فوجد أمه في فناء الدار تنتظره، واضعة يدها على رأسها، و"زاهية" نائمة في حجرها، فقد انتصف الليل، ولم يأت "إبراهيم" سمعت باب الدار يفتح، ورأته أمامها واهي القوى ضعيف الحيلة، وأخبرها أنه سيتزوج بمن اختارها أبوه.

قالت: يا بني لا تجبر نفسك على شيء أنت لا تريده.

قال: استوى الأمر عندي، " اعتماد" مثل غيرها، وطالما أردتم زواجي فسوف ألبي رغبتكم.

قالت: يا ولدي أنت لا تدري معنى الزواج، هي زوجك التي تسكن إليها، تعدّ طعامك وشرابك وترعى حاجياتك، هي أم أولادك تستأمنها عليهم في تربيتهم.

قال إبراهيم: أبي يرى أنها تصلح لي، وربما له وجهة نظر لا أراها، ومعظم البيوت لم تقم على الحب.

في اليوم التالى ذهب "إبراهيم" مع أبيه ليخطب "اعتماد"، وقرر أبوه في نفسه أن يدفع لها مهرا كبيرا حتى يرى صهره الجديد أنه ليس أقلّ منه، واتفقا الاثنان، واشترط والد العروس أن يكون الزواج بعد الانتهاء من بناء حجرتين فوق الدار.

ذهب " محمد" إلى " العماير" قريته الصغيرة لبيع آخر قيراطين من أرضه حتى يفي بمتطلبات زواج ولده من مهر وذهب وأثاث.

مرّت الأيام وجاء موعد الزفاف، ودخل "إبراهيم" بعروسه محاولاً التوافق مع وضعه الجديد فهي ستصبح أم أولاده، فقرر أن يجعلها حظه من الدنيا؛فبدأ رويدًا رويدًا أن تكون مشاعره تجاهها.

وسكن الجميع بالبيت الكبير، " إبراهيم" وزوجه بالأعلى، و"فاطمة" و"محمد" بالأسفل.

obeikandi.com

عاش الجميع في هدوء رغم ما تخللها بعض من مناوشات بين الحماة وزوجة ابنها.

كبرت " عائشة" و"زاهية"، وأنجب " إبراهيم" ولد سماه "عاصم" قبل استلام وظيفته، زاد العبء على محمد حيث كان عمله يتكسب منه القليل لا يفي بأسرتين، وكان "عبد الإله" بالمرحلة الثانوية، أراد أن يعمل ويترك المدرسة ولكن أباه رفض وأصرّ على إتمام دراسته حتى الجامعة. كان في ستينات القرن الماضي، والأسرة حالها يزداد فقرا كباقي الأسرة المصرية وخاصة في ريف وصعيد مصر.

فقد كانت الحالة الاقتصادية لمصر تسوء في ظل تداعيات حرب اليمن، فقد فكر "عبدالناصر" بعد انفصال سوريا عنه أن يذهب إلى الجنوب، ففي شتاء عام1962م قرر إرسال ثلاث طائرات وفرقة صاعقة وسريْة من مائة جندي إلى اليمن في مهمة تخيل أنها سهلة، وحاربت القوات المصرية أصنافا كثيرة من البشر ومرتزقة من كل مكان، ولم تكن تعرف العدو من الصديق، بالإضافة إلى عدم معرفة الأرض وصعوبة التحرك عليها، فضلا عن طقس اليمن الذي لم يعتاده الجنود، فوقعت مصر في فخ اليمن حتى أطلق عليها "فيتنام مصر" وقد أدت في النهاية إلى خسائر، لم تكن أسرة فاطمة الصغيرة بمنأى عنها فقد تكبد الشعب المصري الكثير بسبب نزوات حكامه.

كانت "زاهية" في نهاية المرحلة الابتدائية، كانت "فاطمة" توقظها كل صباح فلا تجد الصغيرة إلا الحذاء البالي، والثياب القديمة المهلهلة، وقطعة خبز جاف لتضعه في حقيبة المدرسة المصنوعة من القماش، كانت تنظر إلى ثيابها وثياب بنت "البيه" التي تجلس في أول الصف وتأكل "الجبن الرومي" الذي لم تكن "زاهية" تعرف اسمه، ويأتي الخدم في صحبتها كل يوم.

رأت ما كان من حال أمها تبيع بيض دجاجها قبل بيضه، أخبرت أمها أنها لا تريد إكمال دراستها، وأخبرتها أنها تريد أن تعمل في جني القطن وجني البطاطس والحبوب، صرخت أمها في وجهها ورفضت ذلك، أصبحت "زاهية" لا تريد الذهاب للمدرسة فهي ترى بنت "البيه" معها أفضل الطعام وتلبس أفخم الثياب وتنظر إلى حالها لا تجد طعاما، ولا تجد إلا ثوبا واحدا كاد أن ينطق بالهلهلة التي به ويقول لها اتركيني.

كل يوم تتأخر "زاهية" عن المدرسة ولا تريد الذهاب أبدا، حاولت أمها جاهدة؛ ولكن دون فائدة.

أكملت المرحلة الابتدائية، وأرادت الانتهاء من المدرسة عند هذا الحد، ورفضت الذهاب للمرحلة الإعدادية وفضّلت الجلوس في البيت، فلم تجد ما يرغّبها في استكمال تعليمها.

أصبح عمرها ثلاثة عشرة سنة تذهب هي وأختها "عائشة" مع باقي الفتيات إلى النيل كل صباح لتملأ الجرار مرة أو مرتين في اليوم، وفي سيرهما ذهابا وإيابا تغنيان الأغاني العذبة، ويطلن الحديث في أمور البيت وزوج الأخ التي لا تذهب معهما، لأنها زوجة " الشيخ إبراهيم" الذي أصبح مدرسا للغة العربية وينتظر مكان عمله.

وما تكاد تحط الفتاتان الجرار إلا ويجدن من يسرعن في أخذ الماء، إنها زوجة أخيهم المدللة؛ فتغتاظ " زاهية" وهمت في غضب أن تتكلم، فوضعت أمها يدها على فمها حتى لا تنطق؛ فهي تريد السلام لابنها الكبير حتى وإن كان على حساب بناتها.

كان البيت يضج بساكنيه، ضاق الحال بـ"فاطمة" وربما لا تجد ما تصرف به يومها من خبز وطعام، فتذهب "زاهية" الصغيرة إلى الحقول لتجمع البطاطس أو القطن مقابل بعض القروش الزهيدة، فتعمل تحت حر الشمس المحرقة، يجرح أناملها الصغيرة أعواد القطن الجاف وهي تجني بعضه، لا تجد ما يقيتها غير خبز جاف وقطعة جبن أعطتهما أمها إياهما ثم تعود المسكينة مع غروب الشمس إلى البيت فتسعد أمها بما جاءت به من نقود وبعض الخضروات، وتنام في شقاء على حصير يؤثر في جسدها الرقيق لتقوم في الصباح وتعاود الكرة كل يوم.

كانت أختها "عائشة" ذات ملامح رقيقة، أنف حاد وعينان واسعتان ووجهة مستدير، تميزت بالهدوء، لم تكن يوما مشاكسة، عكس "زاهية"، كبرت ورفض والدها أن تذهب للعمل في الحقول، كان جارهم "عبد الحسيب" يكنّ لها مشاعر حب وإعجاب، لم يكمل تعليمه الأزهري والتحق بوظيفة "كاتب" في محكمة. طلب يدها فوافق الأب في الحال وتم الزواج وكان فرش العروس الذي أحضره الأب متواضعا لابنته فلم يعد ما يبيعه فقد باع أرضه لتعليم الأبناء الذكور وزواج "إبراهيم".

بقيت "زاهية "مع أمها بمفردها مع زوجة أخيها التي رزقها الله بـ"صفوت" فزاد العبء.

وكانت بنت الأربعة عشر ربيعا تخرج مع مطلع الشمس للحقول لجني القطن وتحضر "التصّبيفة" – من التصفية وهي ما تبقى من ثمار في الحقل بعد الجني - من بطاطس وطماطم وحبوب؛ لتسد بها جوع أهل الدار.

ولا تجد فسحة لها إلا مع الجيران في الذهاب عصرا لملأ الجرار من "الفيض الكبير" وهو الاسم الذي يطلقه أهل البلدة على فرع النيل.

جاء عمل "إبراهيم" في صعيد مصر مدرسا للغة العربية بسوهاج إحدى محافظات الصعيد، وأخبر والده بأنه سيذهب لاستلام عمله، وسيأخذ زوجته وولديه، فدعى له بالتوفيق في عمله وأن يحفظه الله في حلّه وترحاله.

لملمت "اعتماد" ما أرادت من ثياب وودعت عمتها "فاطمة" وغادر "إبراهيم" الدار وسط دعوات أمه وأبيه متجها إلى محطة القطار ليستقله إلى الصعيد حيث عمله الجديد.

نزل عند صاحبه ورفيق دراسته "حسن"، الذي تزوج بنت عمه وأنجب منها ثلاثة ذكور، كان يقيم في بيت أبيه الذي كان يعمل بقّالا، ويوزع التموين الحكومي على أهل القرية كان الحزن لا يفارق وجه "أبو حسن" على ولده الذي مات في ثأر بين عائلتين، لم يكن له بهما أي علاقة؛ فقد أصيب بطلق خطأ في رأسه وترك الحزن الذي رآه "إبراهيم" عليه، كان له أربعة أبناء ذكور كان أحدهم يدرس في كلية العلوم بالقاهرة وكان متفوقا.

استأجر "إبراهيم" شقة ليست بالبعيدة عن المعهد الأزهري الذي يعمل فيه، بها ثلاثة غرف وحمام ومطبخ، تطل على عصارة للزيت الحار، في هذا الشارع يسكن بعضا من زملائه، ساعده "حسن" في شراء أثاث بسيط، وبدأ حياته العملية.

ما زالت "زاهية" تعمل في الحقول تخرج كل يوم لتعود في المساء ببعض المال القليل فيساعد في تعليم أخويها، فقد التحق "عبد الإله" بكلية دار العلوم و"خالد" في المرحلة الإعدادية.

كبرت الصغيرة وأصبحت شابة يافعة ازدادت جمالا فهي ذات السادسة عشر ربيعا ورفض أبيها أن تخرج للعمل.

كانت " فاطمة" تجلس أمام التنور والدخان المنبعث منه يزيد الخناق عليها وكومة القش بجوارها تأخذ منها القليل فتضعه في النار فيزيد اللهب ويزاد اضطرابها معه؛ خوفا من المستقبل، فبللت قطعة قماش قديمة ولفتها حول عصا التنور ومسحته بها فهيأته للخبز وقد ناولتها " زاهية" العجين حتي إذا ما انتهت منه وضعت طعام الغداء فطهت بعضا من ثمار البطاطس والباذنجان، وحدثت نفسها بصوت خافت يا رب عليك توكلت فارزقنا يا كريم.

وبعد الغداء جلس "محمد" على أريكته في وسط الدار، وفي يده كوب الشاي الساخن ارتشف منه رشفة ثم نظر إلى زوجته وأخبرها أنه سيعمل في ديوان الباشا ليلا، لأنه دخل في تجارة البطاطس والغلال بجوار تجارته في القطن وأراد كاتبا جديدا فعرض عليه أن أذهب إليه في المساء فوافق. حمدت "فاطمة " ربها على فضله وكرمه عليها.

كانت "زاهية" تذهب لجارتها النصرانية "أم بطرس" لتتعلم منها صناعة غطاء الرأس الذي يتزين به نساء القرية وكان يصنع من القماش الخفيف وخيوط الصوف والخرز كانت تجلس على حِرام خشن تغزل على شعاع المصباح الخافت ليلا لتصنع الكثير منه فكرت في بيع ما تنتج في سوق القرية، ولكن من سيسمح لها؟ فرأت أن تعطي جارهم البقال عم "أمين" ما تصنعه ليسوّقه لها، وكانت

تبيع بعضا منه لجاراتها، وكانت تدخر النصف وتعطي أمها النصف الأخر.

كان أبو محمد قبل وفاته قد اشترى أرضا في أطراف القرية، ولم يبيعها "محمد" لأنها بعيدة ولا يرغب الناس فيها، وحينما ذهب إليها ليتفقدها وجد العمران قد زحف إليها، فقرر بنائها، فقد صار المكان الذي يسكن فيه مزدحما، فضلا عن سلوكيات بعض من جيرانه التي لا يستحسنها.

رفضت "فاطمة" ذلك الأمر، فكيف تترك الدار التي عاشت فيها وأنجبت كل أولادها ولها قصة وحكاية مع كل ركن من أركانها، وكيف تترك جاراتها ولكل واحدة منهن معها عشرة طيبة ومواقف لا تنسى.

لم تستطع أن تثني زوجها عن قراره، فهو صلب الرأي عنيد.

كان "محمد" يبني بيته غرفةً غرفة كلما انتهى من واحدة بنى الثانية حتى اكتمل البيت واستغرق إعداده عدة أشهر، وأخذ يزرع فيه أشجار الليمون والجوافة وبعضا من شجيرات الطماطم والباذنجان ووضع شجرة عنب أمام البيت ليستظل بها.

كان الناس في فقر وبؤس يشعر به الحضر كما يشعر به الريف، ورغم ذلك ازداد الضغط الشعبي على "السادات" الذي تولى الحكم بعد "عبد الناصر" على استعادة سيناء فبدأ في منتصف شهر مايو عام واحد وسبعين وتسعمائة وألف بوضع دستور جديد، فبعد أن تولى الحكم قام بثورة أسماها "ثورة التصحيح".

الواقع أنها عملية تنقيح للسلطة من أتباع "عبد الناصر" اليساريين والتي سميت أيضا بالقضاء على مراكز القوى من أبرزهم نائب رئيس الجمهورية ووزير الدفاع والداخلية ورئيس البرلمان وسكرتير رئيس لجمهورية، وبدأ بتحسن علاقة مصر مع السعودية في عهد الملك فيصل - رحمه الله، وقد ساعده في حربه ضد إسرائيل بسلاح البترول.

كان حديث الناس منصبا على استرداد الكرامة ليست المصرية فقط بل العربية أيضا لم يتهم الناس لفقرهم وحالتهم الاقتصادية بقدر اهتمامهم باسترداد الأرض ومعها كرامة الإنسان العربي.

كان "عبد الإله" في هذا العام على مشارف التخرج، وكانت الحركة الطلابية على أشدها، فقد أعلن السادات أنه عام الحسم مع إسرائيل ولكنه لم يحارب، فقامت انتفاضة لشباب الجامعات المصرية شارك فيها "عبد الإله" وزملاءه من كلية دار العلوم.

قامت جامعات أخرى كالإسكندرية والأزهر وعين شمس بمظاهرات حاشدة مثلت ضغطا كبيرا على صانعي القرار في مصر وقتها.

حل الصيف وعاد " عبد الإله" بعد انتهاء عام حافل بالأحداث، وفي انتظار النتيجة.

كان "محمد" قد انتهى من بناء الدار وعليهم الانتقال بعد ثلاثة أيام، رفض الأولاد الذهاب مع أبيهم وتركهم الجيران والأصحاب وذكريات الطفولة وملعب الصبى وملهى الشباب.

ولم يكن أمام "فاطمة" إلا البدء في جمع أثاث البيت فلم تر بدّ من الذهاب مع زوجها إلى الدار الجديدة وودعت بيتها القديم الذي شهد معها أفراحها وأحزانها وودعت جاراتها "أم عبد الفتاح" و"أم هلال" وبكين الجميع على فراق جارتهن.

ذهبت "زاهية" مع والدتها تمشيان خلف العربة التي تحمل الأثاث وغبار الطريق يزيد من ضيقهما على ترك منزلهم القديم، فقد تركت "فاطمة" أعز أيامها فيه، وما إن حطت قدميهما البيت الجديد إلا وقد اعتراهما الإحباط واليأس من هذا المكان المقفر فقد أبصرتا بيتين أو ثلاثة بجوارهما ولم يكن الأمر بالهيّن عليهما.

أخذ " محمد" و"عبدالإله" في إنزال الأثاث يساعدهما "خالد" فيناول أمه وأخته بعضا منه فيفرشان ويكنسان المنزل حتى أصبح مهيأ للسكنى.

مرّت الأيام وأصبح "عبد الإله" في آخر عام له بالجامعة، وخالد في المرحلة الثانوية وزاهية صاحبة الثامنة عشر ربيعا، وأصبح المكان آهلا بالسكان، ولاحظت "فاطمة" أن جيرانا جدد قد سكنوا البيت الذي عن يمينها، ذهبت إليهم وباركت لهم وعرفت جارتها الجديدة "حسنية" وزوجها "عبد اللطيف" ولها من الأولاد ثلاث، وكان الأكبر في عمر عبد الإله والأصغر ترب خالد.

والجار الجديد ميسور الحال، واشترى أرضا ومساحات كبيرة في هذا المكان وقرر هو أيضا أن يسكن بجوار أرضه.

كانت "فاطمة" تأمل أن يكون لجارتها الجديدة ما كان عند جاراتها السابقات من تودد وحسن جوار.

كانت "حسنية" امرأة جميلة صاحبة خلق حسن، ومعاملة طيبة فانشرح صدر "فاطمة" لها شيئا فشيئا أصبح المكان مزدحما بالسكان وأصبح لها جارات كثيرات فهذه "مبروكة" وثانية "ليلى" وثالثة "إنصاف".

وكنَّ يجلسن على باب منزل أحدهن -كعادة أهل الريف - يتبادلن الحديث وأخبار أهل القرية، ولا يقطع حديثهن إلا

المارة بإلقاء السلام، وكن يتقاسمن الدقيق والخبز والحليب والخضار والتناوب بينهن للذهاب إلى السوق.

تخرج "عبد الإله" من "دار العلوم"، ولم يطرق قلبه فتاة ولم يذق طعم الحب. كان يعتني بأمر تعليمه وتخرجه والحصول على شهادته الجامعية.

وقبل استقباله لوظيفته مدرسا في إحدى القرى القريبة تعرف على شاب يدعى "حمزة" كان يستأجر دكانا بالقرب من سوق القرية يطل دكانه على الجسر الذي يربطها بالقرية المجاورة حيث المكان المحبب لجلوس الشباب كل عصر، وكان يعمل في مجال إصلاح آلات الري.

وكانوا يتبادلون أخبار الناس مع تطاير دخان السجائر من شفتي أحدهم، يرتشفون أكواب الشاي بالنعناع و يجلسون على كراسي مصنوعة من عيدان البامبو التي يجلبها الناس من أسوان.

لم يكن لـ"حمرة" أحد فقد توفت أمه بوقت ليس بالبعيد، وكانت هناك امرأة عجوز ترعى "حمزة" وتقوم على خدمته تدعى "أم فتحي" طيبة القلب تسكن بجوار دكانه.

كان "عبد الإله" يعرف "أم فتحي" من خلال حديث حمزة الطيب عنها، فأمر "زاهية" أن تذهب ببعض الذرة الخضراء لها كعادة أهل القرية، في موسم جمع الذرة الشامية، حملت الفتاة على رأسها بعضا منها، وطرقت الباب، قالت أم فتحي: من؟ قالت: أنا زاهية أخت عبد الإله.

قامت السيدة وفتحت الباب ورحبت بالفتاة وأخذت منها الذرة وشكرتها.

جاء "حمزة" ليأخذ غرضا من بيت "أم فتحي" والفتاة تهمّ بالانصراف، قابلها على الباب فوقع نظره عليها، فوجد فتاة جميلة ترتدي عباءة سوداء تزيدها بهاءً وعليها منديل رأس مشغول بالصوف الوردي الممزوج باللون الأزرق وعليه غطاء من الحرير الأسود الخفيف، شعر أن قدميه لا تحمله، غاب عن واقعه لثواني معدودة ثم عاد فوجد الفتاة قد انصرفت.

سأل: من هذه يا أم فتحي؟ قالت في تعجب ودهشة: ألا تعرفها؟ قال: لا.

قالت: إنها أخت "عبد الإله" صديقك.

جلس في زاوية من الدكان وقد تبدل حاله، دخل عليه رجل يريد إصلاح ماكينته، أخذها "حمزة" دون كلام، عاود جلسته شارد الذهن، مهموم الفكر، فمازال في بداية الطريق، لم يدخر إلا القليل، ما من أحد يساعده في زواجه، حتى أخوه الذي يسكن بيت أبيه، لن يساعده فهو بخيل.

كتم الشاب إعجابه بالفتاة وسلّم أمره لخالقه، فهو الفقير إلى غناه وكرمه أن يرزقه من فضله، لكنه لم يستطع فعزم على خطبتها وتيقن برزق الله له.

لم يجد سوى بيع المتبقي من ميراث أبيه يبيعه ويقدمه مهرًا لأهل العروس، كان ميراثه جزء من بيت صغير كان أخوه "نافع" الأصغر يسكنه.

ذهب إليه وأخبره ببيع حقه من ميراث والده في المنزل؛ لأنه ينوي الزواج ويريد مالا وما إن سمع "نافع" هذا الكلام حتى ثار عليه وغضب ومسك بثيابه وقال: تريد أن تخرجني من بيتي أين أذهب أنا وأولادي؟ لقد مات أبي وتركني فيه لدي ستة من الأولاد أين أذهب بهم؟! وكانت زوجته سليطة اللسان، قبيحة الفعال، خرجت عليهما من الداخل مهرولة ومسكت بثياب "حمزة" وقالت: جئت لتخرجنا من بيتنا وأخذت في سبابه وضربه، وارتفعت الأصوات وجاء الجيران على وقع صراخها. وقف المسكين مشدوها لا يدري ماذا يفعل، هو لم يطلب أكثر من حقه.

ذهب إلى أخته الكبرى "نرجس" في المدينة التي كانت تبعد عن القرية نصف ساعة بالحافلة كان لها بيت كبير من طابقين ورثته من زوجها الذي مات منذ عامين وترك لها ولدين لا ترى من الدنيا سواهما، فقد أغلقت على نفسها الحياة لا تعطي إلا لهما ولا تضحك إلا لهما فهما الحياة لها. قالت في برود: لا أريد أن أتدخل بينك وبين أخيك حتى لا يقال أنى نصرت أحدكما على الأخر.

قال حمزة: لكن الأمر واضح لا لبس فيه هناك ميراث وأريد أن آخذ حقي منه،والكل يعلم أننا لم نتقاسم البيت بعد وفاة أبي.

وقال في غضب: وماذا ستفعلين في ميراثك في بيت أبيك؟ ألا تطالبين به؟

سكتت " نرجس" وقالت ليس الآن ،لدي هذا البيت فيه شقتين آخذ الأجار يكفيني ووِلديّ. ترك أخته وهو لا يدري ماذا يفعل أيذهب إلى أخيه مره أخرى يستعطفه علّه يعطيه شيئا من المال أم يذهب إلى أحد المحامين فيقاضيه.

وهذا سيكلفه مالا كثيرا فضلا أنه سيأخذ وقتا أطول ،ذهب إلى أخيه واستعطفه بالرحم الواحدة التي جمعتهما قبل جدران هذا البيت استعطفه بالجمع على مائدة واحدة وطبق واحد فيمد الأخ ويأكل نفس لقمة الخبز، استعطفه بدعاء أمه لهم بأن يكفيهم الشر، استعطفه بانحناء أبيهم على الفأس والمحراث حتى يطعمهم الحلال.

لكن أخاه جاحد القلب قاسي الروح،و أنكر أن يكون له أي حق في بيت أبيهم وقال: لقد ملكني أبي هذا البيت قبل وفاته ،قال"حمزة" بصوت عال: أنت تعلم أن أبي لم يفعل ذلك فلم يخبرنا بذلك قبل موته، أنا أحتاج المال وليس لي بابا غير هذا ،إن لك أولاد ألا تخاف أن يفعل واحدا منها ما تفعله أنت بي؟

obeikandl.com

قال أخوه في تكبر وعناد: لن تأخذ إلا اثنى عشر جنيها، قال حمزة: لكن هذا قليل.

قال: ليس لك عندي غيرهم، صرخت زوجة أخية بصوت عال أخرج من بيتي وإلا اتهمتك بسرقة حليّ، ومزقتْ ثيابه، ودفعه أخوه إلى الخارج.

لم يحد إلا بيت عمته "حفيظة" التي كانت تسكن بجوار دارهم في حارة ضيقة منحنية لها ولد كفيف سمين وطويل القامة، كانت تقوم على رعايته، تتمنى أن تزوجه بفتاه ترضى بحاله لكنها لم تجد من بنات القرية من ترضى بولدها، كانت سيدة حنون، حينما رأت ما حدث معه هدأت من روعة، وأحضرت طعام الغداء لم يتناوله ولكنها أصرّت على إطعامه، وطلبت منه أن ينتظر في دارها حتى تذهب لأخيه وتتحدث معه.

هددت "حفيظة" أخيه وقالت له: لقد ترك أبوكم معي وصية بتوزيع إرثه بعد مماته وإن لم تعط "حمزة" حقه سأذهب بها إلى عمدة القرية.

حاولت زوجة أخيه أن تتحدث قاطعتها "حفيظة" بغضب شديد وقالت: لا دخل لك بما يحدث.

استخرج "نافع" خمسون جنيها من الداخل وقال لها هذا كل ما عندي ولن أعطه مليما آخر.

أخذت "حفيظة" النقود وأعطتها لـ"حمزة" وشكرها على صنيعها معه وقبّل رأسها وانصرف.

obeikandl.com

كان قد ادخر مبلغا من المال من عمله في الدكان ولما اكتمل معه مائة جنيه أخبر "عبد الإله" أنه يريد الزواج من أخته، اندهش وسأله كيف عرف أن له أختًا؟ فأخبره أنه رآها عند "أم فتحي".

سُرّ "عبد الإله" فهو يعلم أن "حمزة" رجل طيب يخاف الله تعالي ويتصف بالأمانة وحسن الخلق.

تحدث مع والده في ذلك وأبدى الوالد مخاوفه من هذا الزواج؛ لأنه لا يعرف الشاب المتقدم لابنته.

لكن "عبد الإله" أخبر أباه بحسن خلقه وأنه من عائلة طيبة، فأبيه كان يعمل فلاحا بعد أن تركهم جدهم في فقر حيث كان يذهب لحفلات "أم كلثوم" ويغدق المال على زيجاته الكثيرة وباع أرضه كلها، بينما هناك من أقاربه من يمتلكون أرضا وحدائق وبساتين للنباتات العطرية ومنهم من يصدر إلى أوروبا.

فكر "محمد" في مستقبل ابنته وفضّل عدم الزواج بفلاح؛ لأن الفلاحة مهنة شاقة ولابد أن تتحمل النساء نصيب منها فلم يُرد لها الشقاء، ففضل بعد طول فكر أن يزوجها من "حمزة" صاحب الحرفة.

استخار الله تعالى وطلب من "عبد الإله" أن يأتي معه بعد صلاة المغرب ليتحدث إليه، جاء في الميعاد المحدد وجالسه وحاوره، فوجده شابا طيب القلب صاحب دين وخلق.

o b e i k a n d l . c o m

أخبر "محمد" زوجته "فاطمة" بالموضوع وطلب منها أن تخبر "زاهية" أن شابا متقدم لخطبتها؟

في بداية الأمر خافت "زاهية" وشعرت بالرهبة، فهي لا تعرفه فليس بابن الجيران ولا من أقربائها، خافت وكادت أن ترفض، شعرت أمها بما يدور في خاطرها وأقنعتها بأن الزواج من "حمزة" سيفتح عليها أبواب السعادة؛ لأنه رجل طيب يخاف الله وفي يده مهنة هي أفضل من عمل الحقل والفلاحة.

انتظر "حمزة" أسبوع حتى يردّ عليه "عبد الإله"، كان كل يوم بعد أن يغلق دكانه يمشى في منتصف الليل إلى دار "زاهية" يقف من بعيد ويحدث نفسه ،هل سيصبح من أهل هذا البيت؟ فكم تتمى في قرارة نفسه أن يكون واحدا منه، فقد لمس دفء الأسرة وترابطها.

وافقت "زاهية" بعد تفكير طويل وقد استخارة الله تعالى ودعت أن يكون زوجا صالحا حنونا ورحيما بها.

طار خبر خطبة "زاهية" إلى ابن الجيران "فهمي" وكان ينوي خطبتها. فذهب إلى والدها ليخطبها منه لكن أباها رفض وقال: لا خطبة على خطبة أخيك. علّل "فهمي" بأنه الأولى وكان سيطلب يدها ولكنه تأخر حتى يجني محصول القطن، أصرّ في تبجح أن يفسخ خطبتها بـ"حمزة"، غضب "محمد" غضباً شديداً وقال له: طلبك يا ولدي مرفوض.

خرج "فهمي" غاضبا وكانت أمه تأمل في موافقة "فاطمة" أن تزوج ابنتها لولدها فأخبرتها أن الأمر خرج من يدها فـ"زاهية" أصبحت مخطوبة وزواجها على الأبواب.

أكمل "حمزة" مهر "زاهية" وقدمه لوالدها، واستأجر دارًا صغيرة بالقرب من دكانه، ذات فناء ضيق غرفة عن اليمين وأخرى على اليسار.

كان أجارها جنيه ونصف، في حارة ضيقة طريقها متعرج.

وقبل العرس بيوم ذهبت صويحبات العروس وبعض النسوة لإعداد البيت الجديد، وهو يوم "الحناء" حيث ذهبن صباحا في موكب يسير شوارع القرية بأواني وأغراض المنزل وملابس العروس، منهن من تسير على قدمها حاملة ما تيّسر لها، ومنهن من ركبت على عربة يجرها حمار وضع عليها الثقيل من الأشياء، وطفن شوارع القرية حتى وصلن إلى دار العروس - وكان هذا على عادة أهل هذا الزمان - والناس يقفون على أبواب البيوت وعلى أسطح منازلهم ليروا ما جهزته العروس ويتساءلون عن "العريس" وأهله وأصحابه ويستفسرون عن كل شيء.

وأخذن كل واحدة منهن ركنًا لتضع فيه ما تحمله ،وبدأن يفرشن مع إطلاق الزغاريد والأغاني الريفية التراثية، وانتهين مع أذان المغرب وتركن البيت وانصرفن إلى بيت العروس لإحياء ليلة "الحناء".

أقيم حفل الزفاف، وحضر من أهل "حمزة" أخته وولديها، كانت "زاهية" تلبس فستان أبيض من الستان اللامع وعليها طرحة مزينة بحبات الخرز واللؤلؤ.

وزيّنتها الماشطة ووضعتْ لها الكحل وبعض المساحيق على بشرتها البيضاء الناعمة.

فخرجت عليهم أجمل عروس وأقبلت أخته وسلّمت عليها وقدمت لها التهاني والتبريكات، وبعد الاحتفال وتقديم التهنئة من هذا وذاك أخذ " حمزة" عروسه من يدها والتفتتْ إلى أمها لتودعها وقبّلت يدها ومضت مع زوجها إلى عشها الجديد.

دخل بزوجته الدار الصغيرة المتواضعة التي استأجرها، وكانت صاحبات "زاهية" قد فرشنها وزين لها غرفة النوم ببعض من الورود ووضعن ملاءة السرير القطن ومن فوقه حِرام من الحرير الأحمر وعلى حوافه لون زهري ،بحثت عن قميص نومها الأبيض داخل خزانة الملابس ارتدته وبدت أميرة من زمن أميرات الزمن العثماني.

لم يرد "حمزة" أن يستدر عن هذا الوجه المضيء، وهذه الابتسامة التي تعلوها حمرة الخجل، عانقت روحه هذه الابتسامة على ثغرها، واحتضن قلبه البائس حنان زوجته فكان الدواء لروحه المعلولة من تقلبات الأيام.

Obeikandl.com

رأتْ "زاهية" نفسا تريد أن تسكن محراب قلبها فطرقت بابه في استعطاف، فرقّت له ومنحته الجلوس على سويدائه، وباتا العروسان ليلتهما في هدوء وسكينة.

في الصباح جاء "خالد" أخو "زاهية" الصغير مع أمه ليحمل معها بعضا من أغراض البيت للعروس قد أعدتها "فاطمة" لابنتها.

وجد "خالد" "زاهية" جميلة متألقة مشرقة كالشمس، فنظر إليها نظرة محب لأخته وقال في براءة: أنت جميلة يا أختي، فاحتضنته "زاهية" في حنان الأخت الكبرى.

كان فتيان الحارة وفتياته يحاولون الوقوف أمام باب العروس علّهم يفوزون بنظرة فتعطيهم حلوى العرس، فكان يقف هذا على ظهر زميله ليرى من نافذة الدار ما يدور فيها ويخاصمه الجالس حتى يبدل الأدوار فيفوز هو الأخر بنظرة لبيت العروس الجديدة ربما تعطيه حلوى أو كوبا من "الشَرْبات" وهو ماء ممزوج بالسكر مع ماء الورد الأحمر.

جاء المهنئون ليباركوا للعروسين ويدعوا لهما بالرفاء والبنين، وكان من بين هؤلاء أحد أقارب "زاهية" ويدعى الشيخ "محفوظ" كفيف البصر ومعه ولده "عبد الهادي" كان يعلم أبناء القرية القرآن الكريم ويعاونه ولده الذي كان يدرس بالأزهر وكان حلم والده أن يراه مثل "إبراهيم" فهو قدوته ومثله الأعلى.

انصرف الجميع ومضت أيام الزواج الأولى، وعاد "حمزة" إلى دكانه وترك "زاهية" في البيت تقوم بأعماله.

في ذات مساء عاد إلى البيت وقد اشترى فاكهة ولحم وخضار، قالت له: من أين أتيت بها؟ قال وهو يضحك من الفاكهاني و الجزار، قالت: أقصد من أين أتيت بثمن كل هذا؟

قال: بالأجل.

استدارت ورفعت جبين العز وقالت: أنا لا آكل بالأجل، أحب لي أن آكل الفتات ولا يكون عليّ دين لأحد.

صمت "حمزة" وامتزج صمته الساكن بالفرح؛ لأن الله منّ عليه بزوجة نادرة، فهي ليست ككل امرأة تغرق في ملذات الحياة دون أن تعيها أو تكتسي برد النعيم دون أن تعلم أين حيك أو أنها لا تبالي بملأ فمها من حلوى دون أن تدري من أين سكرها وعسلها، لكنه ... أراد أن يسعدها ويحضر لها من قلبه حلو الحياة وهي ما زالت عروس.

عرف شخصية زوجته فهي ليست ممن تحب الإسراف وحب التفاخر والظهور، فشكر الله في نفسه أن وهبه الزوجة الصالحة.

مضت ستة أشهر ولم يكن هناك خبر سار يفرح به الزوجين، قلقت "فاطمة" على ابنتها وأخبرتها أن تذهبا إلى الطبيبة، خافت "زاهية" في البداية لكن طاوعت أمها في النهاية.

مرّ ثلاثة أشهر بعد زيارتها للطبيبة أحسّت زاهية بأعراض الحمل، كان"حمزة" سعيدا فكم حلم أن يعيش تلك اللحظات التي يرى فيها بيتا يبنى وزوجة تملئه حبا وحنانا.

كانت أشهر الحمل تمرّ ثقيلة، ولكنه ثقل محبوب، وتعب مرغوب، وسهر محمود، هو كره على كره، ولكن تعاوده المرأة مرات ومرات تقول آخر مرة ولكنها تستسلم لفطرتها وغريزتها فتنجب وتنجب، خمس أو سبع أو عشر مرات.

كلما اقترب وقت الولادة تفرح " زاهية" فرحا شديدا فسيكون بين يديها مولودها الذي طال انتظاره، اشترت بعض الملابس وحاكت البعض الأخر نوّعت في ألوانها البيضاء والزرقاء والبرتقالي وزينتهم بشرائط من الحرير، تجلس وقت العصر على أريكة تحت نافذة مطلة على فناء واسع لجيران خلفها وقد امتدت شجرة من هذا الفناء إلى بيتها، وقد وضعت يدها على بطنها الممتلئة المنتفخة تتنهد وكأنها تريد أن تضع الآن؛ حتى ترى عيون محبوبها الجديد تريد أن تلمس يده الصغيرة، وتتحسس خدوده، وتملس على شعره، وتشم رائحة أنفاسه، وتضمه إلى صدرها ولا تفارقه أبدا.

حضرت أخت " حمزة" من المدينة وجاءت " القابلة" ومع ساعات الفجر الأولى من يوم الجمعة وضعت زاهية مولودتها الأولى.

يا الله .. إنها بنت، ذات ملامح رقيقة، خمرية اللون، سوداء الشعر كأنه ليل مظلم، عيناها بنية اللون، لقد رزقهم الله بنتا على عكس رغبة "حمزة"، فقد هيأ نفسه أن الأول من أولاده سيكون ذكرا، ولم يكلف نفسه مشقة جدالها في أن يكون الأول من أولاده بنتا! معظم الرجال يحبون الذكور والعجيب في الأمر أن معظم النساء أيضا يحبون لو أن لهن عشرة من الأولاد لتمنين الحادي عشر ولدا وليس بنتا.

قال "محمد" وقد لاحظ على حمزة الضيق: ﴿يا بني لا تكن كمن قال الله فيهم ۞ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم﴾ ألست مؤمنا؟ قال: أعوذ بالله أن أكون منهم بلى الحمد لله أآمن بقضاء الله وقدره، لكن تمنيت أن يرزقني الله ولدا حتى يكون لي أخا وعوضا عن أخي الذي صادر حقي من إرث أبي، قال: فاعلم أن في قدر الله الخير كله ما رأيك إنها "نور" اسم جميل أليس كذلك؟

قالت فاطمة: اسم جميل، وقالت نرجس: "نور" اسم جديد وجميل، كم أحب البنات وكنت أتمنى أن يكون لي بنتا.

نظرت " زاهية" إلى ابنتها وقالت في نفسها: اللهم إنها ولدت في يوم الجمعة يوم مبارك فاجعل لها البركة أينما حلّت.

كانت "زاهية" تنام على سريرها، بينما تفوح رائحة الطعام الذي أعددته "فاطمة " لأبنتها دجاجة كاملة، وحساء المرق الممزوج بالسمن وبعض البهارات، أيقظتها وأطعمتها بيدها

وكانت "نرجس" تحمل "نور" ووضعت لها بعضا من النقود في ملابسها وقبلتها وانصرفت.

ذات صباح كان " حمزة" في دكانه عاكف على إصلاح ماكينة ريّ وإذ بصاحب البيت الذي يسكن فيه قد جاءه ويطلب منه أن يغادره لأنه سيزوج ولده الأصغر فيه وسيمهله إلى آخر الشهر حتى يبحث عن بيت جديد، قال "حمزة": لكن المهلة لا تكفي امنحني شهرا آخر، قال الرجل: لا أستطيع ذلك فأنا أريده حتى أتمكن من تجهيزه وإعداده.

أخبر " زاهية" فتملكتها أفكار الضيق والحزن، فهما لا يستطيعان دفع أجار باهظ، أو السكن في بيت لا ينفع للسكنى ومعهما طفلة صغيرة، أو أن جيرانه على غير هواها.

ذهب "حمزة" كعادته كل صباح إلى دكانه، يستفتح بالعليم الرّزاق وبعد انتهائه من العمل يبدأ البحث عن بيت للإيجار، لكنه لم يجد، وفي يوم قابل صديق له يكبره سناً يدعى "عبدالرؤوف"، وقد بدا على " حمزة" اليأس والتعب من البحث والسؤال، فقال له: ما يحزنك هكذا؟ فأخبره بالأمر، قال له: عندي منزل قديم مكون من طابقين لكنه بعيد عن دكانك بعض الشيء فهل تريده؟ قال له متهللا: نعم، قال له: خذ مفتاحه وانتقل متى شئت فيه، وادفع ما راق لك من الإيجار، فرح"حمزة" وذهب ليخبر زوجته.

سرعان ما انتقلا إلى بيتهما الجديد، كان البيت المكوّن من طابقين، كل طابق مكون من غرفتين صغيرتين ومطبخ ودورة مياه صغيرة، ربطتها علاقة طيبة بجاراتها فعن يمينها "أمينة" وعن يسارها "سيدة" وهما سيدتان نحيلتان، يعملان في الحقل مع زوجيهما في الصباح الباكر ثم تعودان لتجهيز الغداء، حياتهما شقاء في شقاء.

كانت "زاهية" ترى "نور" أمامها فتلتقط نظرة من عينيها الجميلتين، تأخذ رشفة من فمها المبتسم، وتدغدغها ضحكاتها العالية فتملأ البيت سعادة وحيوية.

كان "حمزة" يذهب إلى عمله كل صباح وبعد عودته إلى البيت يعطي زوجته كل ما رزقه الله وكانت تدّخر من هذا المال حتى يستطيعا شراء بيت لهما.

أصبحت "نور" في عامها الأول زهرة يانعة مشرقة تضيء قلب والديها حبا وفرحا وبهجة.

كانت "زاهية" يلفها دوار وشعور بغثيان أحست بأنها حامل في جنينها الثاني، دعت الله أن يرزقها ولدا هذه المرة، فرح زوجها عند سماع الخبر وتمنى هو الأخر أن يرزقه الله الولد.

كانت "زاهية" تعمل في البيت ليل نهار، كانت تصنع أغطية الرأس للفلاحات وتبيعها لهن وتصنع الحلوى وتبيعها بسعر زهيد، فالحياة كانت صعبة مرّت أشهر الحمل ووضعت زاهية ولكن المولود لم يكن ولدا كما تمنيا بل البنت الثانية.

ooeikandi.com

أصرت " زاهية" أن تسميها فقالت سأسميها " مريم" وسيفتح الله علينا بها ويرزقنا.

لم يستطع "حمزة" أن ينطق بكلمة فهذا قضاء الله وقدره، كانت المولودة الجديدة أكثر بياضا من " نور" وشعرها أصفر اللون لكنه غير مسترسل، عين سوداء وأنف حاد.

زاد العبء على " زاهية" فلم تعد تقدر على عمل البيت ورعاية الصغيرتين وصنع الحلوى وأغطية الرأس، فاكتفت بالبنتين والمنزل.

مرّت الأيام والأسرة الصغيرة تعيش في سلام ومحبة يظلها الأب بعطفه وتغمرها الأم بحنانها ورعايتها.

في يوم جاء "خالد" الأخ الأصغر لـ"زاهية" لزيارتها، تعانقا الأخوين فلم تره منذ وقت طويل، كانت تحبه كثيرا، وتشعر بالأمومة نحوه، كان طالبا بالجامعة وفي أثناء إجازة الصيف ذهب للعمل في "اليونان" ورجع إلى قريته، وأول بيت زاره كان بيت أخته، وفي زيارته عرض على "حمزة" أن يذهب للسفر ويجرب حظه هناك وكان " خالدا" كثير الاطلاع يعرف ما يدور حوله ويسمع من كل الأطياف السياسية في الجامعة، وكان الشباب لا تعجبه بعض سياسات "السادات" التي يمارسها.

Obeikandl.com

كانت الجامعة هي المنابر الحرة في كل جيل رأى "خالد" أن البداية قادمة على انتفاضة؛ وذلك لما رآه من تزمر في صفوف الطلاب والعمال حتى في بعض النخب، فاقترح على زوج أخته أن يسافر فربما يستطيع شراء المنزل والدكان اللذين يحلم بهما.

ولم يسافر "حمزة" أو يقرر السفر بعد، جاء يناير عام 1977م، وقد شهد شتاء هذا العام أعاصير ورياح ولكنها من نوع أخر، ففيه حدثت انتفاضة كما توقع "خالد" عُرفت بـ"انتفاضة الخبز" ونعتها السادات بـ"انتفاضة الحرامية"، وذلك بعد بيان ألقاه الدكتور "القيسوني" نائب رئيس الوزراء للشئون المالية والاقتصادية آنذاك أمام مجلس الشعب في 17 يناير أعلن فيه إجراءات تقشفية لتخفيض العجز، وكانت سلع تمس المواطن العادي كالخبز والزيت والسكر والشاي وغيرهم، فقام العمال بثورة ساعدهم الطلاب في الجامعات وحدثت فوضى كبيرة وحرائق وتم اعتقال عدد كبير من المحامين والصحفيين والطلاب، إلى أن أعلن السادات في بيان عدول الحكومة عن هذه الإجراءات ورضخ لمطالب الشعب.

في هذه الأثناء كانت "زاهية" تعاني من أعراض الحمل للمرة الثالثة فربما يرزقها الله الولد هذه المرة.

Obeikandi.com

قرر "حمزة" السفر وترك زاهية وبنتيه عند أهلها وكان يخشى مصيرا غير محمود في هذه البلاد التي لا يعرفها، ولكنه توكل عل الله وتمنى أن يرزقه الرزق الحلال.

ركب "حمزة" البحر، على ظهر سفينة عملاقة، علا سطحها ونظر إلى البيوت وهي تبعد شيئا فشيئا، وكلما بعدت أحس بخفقان شديد في قلبه، كلما سارت السفينة وابتعدت عن الشاطئ ازداد خفقانه، وسأل نفسه: كيف تركت زوجتي وبنتي؟ أريد أن أشق هذه المياه وأسبح حتى أعود إليهن، نظر حوله والشمس قد قاربت على انتهاء رحلتها اليومية وقد صاغت مع البحر أغنية الوداع وتعده فيها بلقاء جديد في الغد، وجد أناس يتحدثون بلغة لا يعرفها، وملامح وجوههم تحكى سعادة العائد من غربته، المنتظر بلهفة عناق تراب الوطن فتمنى لو كان مثلهم نظر في أوراقه التي وضعها في حقيبة يد صغيرة بنيه اللون ذات يد قصيرة، كانت على كتفه لا تفارقه، عبث في أوراقها، وجد ورقة مكتوب فيها بعضاً من الأسماء التي يمكن أن يستعين بهم في أول قدومه إلى اليونان وقد أعطاها له "خالد"، ثم وجد صورة لبنتيه "نور" و"مريم" وقد طلب من "زاهية" أن تذهب بهما إلى استديو التصوير في المركز ليتقط صاحبه صورة لهما.

ففعلت ما أمرها به، أخذ الصورة وقبّلها، ثم وضعها ثانيا في الحقيبة، لكنه سرعان ما أخرجها وأطال النظر فيها ووضعها على صدره ونام ولم يوقظه إلا ضوء النهار، وبعض المسافرين يتبادلون الأحاديث بصوت خافت.

سارت السفينة وبعدتْ أكثر وأكثر، وتنهد وأخذ نفسا عميقا بعمق البحر الذي يركبه، فهو لا يدري ما مصيره هو لا يعلم إلا شيئا واحدا .... خوفه من الفشل.

حطّ قدمه أرض الميناء وصوت البواخر تعلو وكلما أطبقت صفيرها اهتز قلبه من ألم الفراق نظر يمينا ويسارا ولا يدري أن يذهب، كانت هناك أصوات تتعالى وعربات تتقاطر وشاحنات ضخمة تحمل البضائع، ظل يسير حتى قرأ لوحة مكتوب فيها استلام الأمتعة بعدة لغات، ذهب ليستلم متاعه فوجد شابا يتحدث مع صديقه بالعربية، فاقترب منه على حذر وألقى عليه السلام ثم أخرج له ورقة كتبها "خالد" فيها عنوان رجل يمكن أن يساعده، قرأ الشاب العنوان المكتوب باليونانية وطمأن "حمزة" وخرجوا من الميناء وأوقف الشاب سيارة أجرة وركبوا جميعا.

استمر سائق الأجرة يسير في شوارع اليونان ساعة كاملة حتى وصلت إلى وجهتها، قال الشاب: هذا العنوان الذي بالورقة، نزل "حمزة" وشكر الشاب وكان يحمل حقيبته الكبيرة على كتفه الأيسر، أما الصغيرة البنية اللون فكانت في يده اليمنى.

وجد نفسه في حيّ قديم ذكّره بأحياء مصر القديمة، معظم البيوتات قديمة نظر بتمعن إلى الورقة التي بيده فوجد رقم المنزل (42) ثم عاود النظر في الورقة حتى يتأكد من الرقم.

طرق الباب لم يستجب أحد فطرقه مرة أخرى بقوة فتح إليه رجل عجوز نحيل القامة، صاحب أنف حاد وعين رمادية اللون، وشعر رأسه قد اشتعل شيبا ،يلبس معطفا أزرق، تحدث إليه باليونانية فلم يفهم ما يقول أعطاه الورقة التي كتبها له خالد،قرأ العجوز وطأطأ برأسه وقال بلكنة عربية تشبه المغربية "أهلا وسهلا".

مشى العجوز أمامه في ممر طويل ضوءه خافت في نهايته ثلاثة أبواب دخل الباب الذي عن يمينه فوجد امرأة عجوز ممتلئة الجسم، عليها جرز أبيض وتنورة سوداء، ذات ملامح عربية، على كرسي هزاز تمسك بيدها خيط من الصوف تغزل به، حطت الصوف من يدها نظرت إليه وقالت: مرحبا يا بني- بلهجة عربية واضحة، تعجب "حمزة" وظهرت عليه الدهشة ضحكت المرأة وقالت: أنا عربية مسلمة، فتعجب أكثر، قالت هذا زوجي، فتعجب أكثر وأكثر فاستطردت المرأة قائلة تعرفت عليه في الإسكندرية وأسلم وتزوجنا وجئنا إلى هنا.

قال لها "حمزة": أريد العمل ولا أجيد غير (الميكانيكا).

قال الرجل العجوز: سأتحدث إلى صاحب مصنع دراجات أتجيد هذا العمل؟

قال " حمزة": نعم بالتأكيد، فأنا ماهر بمعرفة الدراجات وتركيبها وحلها.

أحضرت المرأة بعضا من الطعام، وصعد الرجل الدرج وأحضر فراش وغطاء ودخل حجرة صغيرة ووضعهما بها، وكان " حمزة" متعبا فأكل ودخل الحجرة التى أعدها الرجل له ووضع حقيبته وبات ليلته هادئ البال بعض الشيء.

وفي الصباح الباكر طرق العجوز الباب فاستيقظ على وقع طرقه فألقى عليه تحية الصباح وخرجا سويا فوجد المرأة قد أعدت الفطور، أفطر الجميع وشكر المرأة على صنيعها واصطحبه الرجل ليقابل صاحب العمل، كان الرجل لديه سيارة قديمة، ركبا حتى وصلا إلى مكان المصنع الذي سيعمل فيه.

قابل "حمزة" صاحب المصنع وكان يسأله ويجيب والعجوز يترجم ما يقولانه، واتفقا على الأجر وكيفية العمل.

خرج لكنه لا يدري أين سيقيم، لاحظ الرجل عليه هَمّا فسأله العجوز عن السبب.

قال "حمزة": أين سأسكن وليس معي مالا.

قال العجوز: ولمَ القلق؟ سأدبر لك غرفة في منزل يسكنه بعض العرب.

وانطلقا إلى شارع قريب من المصنع إلى أن وصلا إلى المنزل المراد، طرق العجوز الباب ففتح له شاب في الثلاثين من عمره فعانق الشاب الرجل وقال من هذا؟

قال العجوز: إنه "حمزة" جاء من مصر وقد وجدت له عملا في مصنع الدراجات القريب من هنا، فهل أجد له مكانا بينكم؟

قال الشاب ويدعى "فوزي" نعم هنا غرفة كان يسكنها شابا مغربيا ترك اليونان وذهب إلى فرنسا للعمل هناك وهذا من حسن حظ ...... ما اسمك؟

قال: حمزة.

قال فوزي: إن شاء الله اسم على مسمى.

تركه الرجل العجوز وأعطاه رقم هاتفه واستودعه الله وانصرف.

وجد "حمزة" مجموعة من الغرف أشبه بالفندق، كان أثاثه قديم جدا ونظر إلى حوائطه مكتوب عليها عبارات تنم عن ألم الغربة والتحسر عن ترك الوطن ووجع البعاد ومدون عليها بعض من قصص أصحابها.

قال: أين الغرفة التي سأسكن فيها؟ أشار فوزي إلى غرفة صغيرة بجوار المرحاض.

قبل "حمزة" بهذا الوضع علّه في يوم ما يتغير، أغلق باب حجرته واستلقى على السرير وذهب في النوم.

كان العام الذي حطّ قدمه في اليونان قد شهد تأسيس أكبر متحف لليهود في أثينا، وعلى عادة اليهود فقد توغلوا في السياسات الأوربية باقتصادهم ونفوذهم في أنحاء العالم. كان هناك تقارب يهودي يوناني مما دفع السلطات اليونانية إلى إنشاء متحف يهودي يوناني.

في الصباح الباكر استيقظ ليعدّ نفسه للذهاب إلى عمله، مشى على قدمه حتى وصل إلى المصنع، وكان عمله على آلة لتقطيع الحديد.

راقب صاحب العمل أداء "حمزة" فوجد فيه الجد والنشاط وحب العمل.

كان له زملاء لا يعرف لغتهم مما صعب عليه التواصل معهم، فاضطر أن يتعلم اليونانية ولكن كيف؟ وليس معه مال يكفي.

وجد رقم هاتف الرجل العجوز في جيبه فاتصل عليه من هاتف بالشارع وذهب إليه، وأخبره أنه يريد تعلم اليونانية فأشار إلى زوجته وقال هي من ستعلمك اليونانية.

قالت المرأة: تأتي إليّ بعد انتهاء العمل، قال: بكل سرور.

كان يذهب للعمل صباحًا وفي المساء يذهب إلى المرأة العجوز ليتعلم منها اليونانية. استغرق الأمر شهرين حتى أجاد اليونانية واستطاع التفاهم مع زملائه بالمصنع.

Obeikandl.com

كان "حمزة" يرسل خطابات تلو خطابات لزوجته وحبيبته وشريكة حياته ويخبرها بكل أحداثه وبأنه مشتاق لبنتيه وأهله ولهواء بلاده وأرضه.

كانت "زاهية" تقرأها وتزرف عيناها بالدموع فلم تفارقه من زواجهما وكانت ترد عليها وتتحين الفرصة لتسجيل صوتها على شريط كاست وترسله مع من يذهب إلى اليونان.

كانت تعيش مع أمها وأبيها وقد بلغت "نور" ثلاث سنوات و"مريم" العامين وأوشكت أن تضع مولودها الثالث.

وفي أواخر ليلة صيفية من عام 1977م تتهامس فيها أوراق الشجر، ويداعبها النسيم العليل شق هذا الهدوء صوت "زاهية" أسرعت أمها إلى "أم هلال" القابلة، فقد جاءها ألم المخاض ومع فجر يوم الاثنين وضعت البنت الثالثة وقد أسمتها "فاطمة" تيمنا ببنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أرسلت لـزوجها أنها أنجبت بنتًا ثالثة، جاءه المظروف وقد، انتهى عمله ذهب مسرعا إلى سكنه، استلقى على السرير وقرأ ما فيه، تلقى الخبر، فلما علم أنها البنت الثالثة كان في نفسه شيئا، فكم تمنى أن يرزقه الله بولد.

كانت الأم وبناتها الثلاث سعيدات في بيت الجد والجدة، لهن الرعاية والحنان من الجميع.

كان "حمزة" يقف على ماكينة التقطيع وعمله جد خطير، يتصبب عرقا، فليتقته بكم قميصه تتورم قدماه من كثرة الوقوف، يشعر بالألم يسري منها إلى جميع جسده.

كانت علاقته طيبة بالجميع فأحبه صاحب المصنع ولمس الإخلاص والأمانة فيه، فأوكل إليه عمل زائد، فرح كثيرا فسوف يزيد راتبه الضعف.

بعد عام ونصف أرسل إلى "زاهية" أن تشتري قطعة أرض ليبني عليها بيتا بدلا من بيت الإيجار، فرحت وبدأت هي وأباها بالبحث عن قطعة أرض لبناء البيت.

كان "حمزة" يرسل النقود وزاهية تبني وكلما ارتفع عن الأرض كانت تطير فرحا وتحلم باليوم الذي تسكنه فيه وهي وزوجها وبناتها.

وبعد عدة أشهر اكتمل البناء وأصبح البيت بطابقين وشرعت "زاهية" في تجميله وتزيينه.

أرسلت لـزوجها أن البيت أصبح جاهزا للسكنى، وتمنى أن يراه ودعا الله أن يجمعه بأسرته الصغيرة فيه.

ارتقى "حمزة" في عمله وأصبح كبير العمال براتب زاد عن مجيئه بالضعفين، وقد مضى أربعة أعوام من عمره بعيدا عن أسرته وموطنه، وكان يغلبه الشوق والحنين ولكنه تذكر احتياجه للمال.

مرّ عام أخر وقرر العودة، أخبر صاحب المصنع برغبته في إنهاء عقده، حاول أن يثنيه عن قراره ولكنه أصرّ على استقالته، وافق صاحب العمل واستعد لمغادرة اليونان.

سلم على الرجل العجوز وزوجته وتمنيا له السعادة وركب البحر إلى "مصر".

وصلت السفينة ليلا إلى ميناء الإسكندرية واستقل سيارة إلى "بني سالم" كانت زاهية تنتظر زوجها وحبيبها لتعانق روحها روحه وتسعد بلم الأب مع بناته.

كانت تنتظر من نافذة بيتهم الجديد ومع آذان العصر رأت زوجها، أسرعت إلى الباب وعيناها تنظر في شوق ولهفة إلى لقاء الحبيب عانقها زوجها وعانق بناته وضم زوجته إلى صدره.

فرح " حمزة" ببيتهم الجديد فقد زينته " زاهية" ورتبته وفرشته بالأثاث الجديد، وكانت ليلة سعيدة بات الجميع فيها بهناء وصفاء ومحبة.

أشرقت شمس اليوم التالي تطل بأشعتها على تلك الأسرة السعيدة، وقفت "زاهية" في مطبخها لتعدّ الإفطار، بينما يوقظ "حمزة" بناته في دعابة ناعمة ويحمل الواحدة تلو الأخرى إلى الحمام فيغسل وجوههن وهو ينظر إلي كل واحدة ويغني لها - صباح الخير ياللي من العسل أصفى ولو بأيدي أخلى شوفتك وصفه - وتناول الجميع طعام الإفطار وجاء والد "زاهية" ووالدتها وإخوانها للسلام عليه.

أخبرهم أنه يريد شراء أرض يقيم عليها مصنعا صغيرا لصنع إطارات الدراجات. اقترح عليه عبد الإله ألا يكون ذلك في القرية، وليذهب إلى المركز التابع له قريتهم، فالنبي صلى اللّٰه عليه وسلم أمرنا أن نلتمس الرزق عند كثرة الأقدام.

وافق على هذا الرأي أبو زاهية وقال: توكل على اللّٰه وسافر إلى المركز وابحث عن مكان مناسب لشرائه.

أعجب "حمزة" بالفكرة وعزم أن يذهب إلى المدينة للبحث عن مكان كبير ليقيم عليه المصنع كانت أخته تسكن في هذا المركز، نزل عليها، وبعد يومين من البحث وجد مكانا مناسبا ليقيم عليه المصنع وهو لأحد أقاربه قد أشتراه منه.

بدأ في تجهيز مصنعه المتواضع واشترى المعدات وبعد ثلاثة أشهر اكتمل المكان، ثم اشترى سيارة نقل كبيرة وبدأ يجلب عمالا ودربهم على كيفية استخدام الآلات.

كان " حمزة" وحيدا لا أحد يسانده، وفي يوم من الأيام ذهب إلى مصنعه مبكرا وجد سيارة غريبة وبها عدد من الشباب يحاولون تفقد المصنع راقب من بعيد ما يحدث دون تعليق.

وبعد أسبوع ذهب إلى القاهرة ليصّدر بضاعته إلى كبار الموزعين والمصدرين لإطارات الدراجات.

هناك رأى واحداً من الشباب الذين رآهم بالقرب من مصنعه وقد خرج من عند التاجر الكبير.

قابله التاجر ورفض أخذ إنتاجه وأخبره أن هناك من عرض عليه بسعر أقل.

تركه وذهب لثاني قال ما قال الأول ثم ذهب الثالث وقال نفس سابقيه.

أصيب بخيبة أمل فقد كان المصنع بدأ يؤتى ثماره وسأل نفسه من هؤلاء الذين يحثون وراءه ويريدون له الفشل؟

كان يذهب إلى مصنعه مبكرا علّه يجد واحدا مما رآهم سابقا، مرّ أسبوع على هذا الحال وأصبح المصنع مليئ بإنتاجه ولا يدري ماذا يفعل به.

وبينما هو في سيارته رأى ذاك الشاب الذي رآه عند التاجر الكبير نزل من سيارته وأخذ بثيابه وقال له: لماذا فعلتم بي هذا؟

قال الشاب:

لنا في هذه الصنعة سنين ورثناها عن جدودنا وجئت أنت لتنافسنا فيها فلن نسمح لك واعلم أننا لن نتركك.

ذهب "حمزة" إلى البيت ولا يدري ماذا يفعل، ضاقت الدنيا به ولا أحد من التجار يريد أن يشتري منه الدراجات.

دخلت زاهية على زوجها ورأت ما به فأشارت عليه أن يتوضأ ويصلى ركعتين حاجة لله فما خاب من استعان به.

Obeikandl.com

توضأ وصلى الركعتين وجلس مع زوجته التي أعدت له كوبا من الشاي وقالت له: يا " حمزة" ليس لدي خبرة بعملك ولا كيف يُدار ولكن ما أفهمه أن إنتاج المصنع لا تجد من يشتريه منك، فلماذا لا تسوقه أنت؟

قال في سخرية: وكيف يا زوجتي العزيزة؟

قالت: لماذا لا تأخذ دور المصدر لإنتاجك؟ اشتري سيارة كبيرة واجعل عليها عاملين واذهب إلى تجار التجزئة في المحافظات أي إنك ستستبدلهم بالتجار الكبار.

راقت الفكرة لـ"حمزة" وفعل ما أشارت عليه به زوجته، وسافر بنفسه إلى المحافظات وعرض بضاعته على صغار التجار وبسعر أقل مما كانوا يأخذونها من قبل.

ونجحت فكرة " زاهية" وأصبح " حمزة" من كبار تجار التصدير للخارج وقد كبر مصنعه وذيع صيته في مجال تصدير الدراجات وكان يذهب للهند لنيل خبرتهم في هذا المجال وكان يأخذ أولاده معه.

هنا سكتت " نور" عن الحكاية وصمتت طويلا، فقاطعتها إحدى بناتها وقالت لها مداعبة: يبدو أن الدكتورة " نور" تذكرت شيئا لمس فؤادها، تنهدت " نور" وأكملت حديثها قائلةً: عاش الجميع في هدوء واستقرار بفضل أب كريم وأم حنون يسع قلبها الجميع وتستمر رحلة العمر حتى يكبر الصغار ويكون لكل واحد منهم قصة ربما حين أفرغ من بحثي الأخير أقصها لكم ....

تمّت

obeikandl.com